

فن السيرة في الأدب الأيوبي

كتاب الاعتبار أنموذجاً

Biographical Art in Ayyoubi Literature

Al Ectibar Asexample

إعداد الطالب:

حازم فارس علي أبو شارب

إشراف الأستاذ الدكتور:

سعود محمود عبد الجابر

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في تخصص اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب والعلوم - قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة الشرق الأوسط

2011 - 2010

تفويض

أنا حازم فارس علي أبو شارب أفوض جامعة الشرق الأوسط بتزويد نسخ من رسالتي ورقيا وإلكترونيا للمكتبات ، أو المنظمات ، أو الهيئات والمؤسسات المعنية بالأبحاث والدراسات العلمية عند طلبها .

الاسم : حازم فارس علي أبوشارب

التاريخ : ٢٦ / ٤ / ٢٠١١

التوقيع :

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة وعنوانها : فن السيرة في الأدب الأيوبي كتاب الاعتبار

أنموذجا ، وأجيزت بتاريخ : ٢٦/٤/٢٠١١ .

التوقيع

.....


.....


.....


أعضاء لجنة المناقشة :

١- الأستاذ الدكتور : سعود محمود عبد الجابر

٢- الأستاذ الدكتور : محمد خليل الخليفة

٣- الأستاذ الدكتور : أحمد موسى الخطيب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر و تقدير

لله الحمد من قبل ومن بعد، وبعد...

عرفانا مني بجميل من كان له الدور الأكبر في توجيهي وإرشادي إلى اختيار موضوع السيرة في الأدب الأيوبي ، وفتح لي مغاليق الأبواب وأسرارها، أتقدم بالشكر والتقدير للأستاذ الدكتور سعود عبد الجابر ، الذي أشرف على هذه الرسالة ومنحني الكثير من وقته وجهده حتى خرجت هذه الرسالة ، بهذه الصورة.

وأقدم بالشكر الجزيل للأساتذة الأجلاء ، وأعضاء لجنة المناقشة ، لما بذلوه من جهد في قراءة رسالتي ، ولما يقدمونه من توجيهات وآراء تسهم في تقويم ما يبدو فيها من عوج ومعالجة ما بها من قصور وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور أحمد موسى الخطيب .

وأقدم بالشكر الخاص لأساتذتي في كلية الآداب في جامعة الشرق الأوسط ، قسم اللغة العربية، وأخص بالذكر منهم الأستاذ الدكتور عبد الرؤوف زهدي والدكتور محمد الخلايلة ، لما أسدوه لي من توجيه وتعليم ، مما ساهم في إخراج هذه الرسالة على الوجه الذي هي عليه ،بارك الله فيهم ، وجزاهم عني خيرا .

ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر والعرفان إلى كل من أعان هذه الدراسة بكلمة ، أو نصيحة أو تشجيع أو دعاء شدّ من عزيمة الباحث من قريب أو بعيد .

الإهداء

إلى الذي كان وما زال لي عزا وفخرا

الوالد العزيز .

إلى التي كلما نظرت إليها زال التعب وتبددت المصوم...

أمي الغالية .

إلى رفيقة دربي وزهرة حياتي

زوجتي العزيزة .

إلى كل إخواني وأهلي وأصدقائي الأوفياء

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
أ	الغلاف
ب	التفويض
ج	قرار لجنة المناقشة
د	شكر وتقدير
هـ	إهداء
و - ط	فهرس المحتويات
ي - ك	الملخص باللغة العربية
ل	الملخص باللغة الإنجليزية
1	الفصل الأول ويشتمل على:
2	المبحث الأول : المقدمة
2	مشكلة الدراسة
3	أهداف الدراسة
3	أهمية الدراسة
4	المصطلحات
5	حدود الدراسة
5	منهجية الدراسة
9 - 6	الإطار النظري والدراسات السابقة
22 - 10	المبحث الثاني : الحياة السياسية في العصر الأيوبي
35 - 23	تطور الحياة العلمية والأدبية في العصر الأيوبي
36	الفصل الثاني ويشتمل على:
42 - 37	السيرة لغة
43 - 40	السيرة اصطلاحاً
55 - 44	أقسام السير

62-56	تطور فن السيرة في الأدب العربي حتى العصر الأيوبي
63	الفصل الثالث ويشتمل على :
70-64	تطور فن السيرة في الأدب الأيوبي
74-70	أثر الحروب الصليبية في تطور فن السيرة في العصر الأيوبي
80-75	النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية
93-81	النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية
94	الفصل الرابع ويشتمل على:
102-95	حياة المؤلف وآثاره
104-103	الاعتبار (سيرة أسامة بن منقذ) عرض وتحليل
106-105	القيمة العلمية للسيرة
108-106	الغاية من سيرة أسامة
120-109	الجانب السياسي
139-121	الجانب الاجتماعي
149-140	الجانب الفكري والثقافي
150	الفصل الخامس ويشتمل على:
152-151	دلالة العنوان
155-153	اللغة
164-155	السرود والحوار
165	الواقعية
169-166	بروز شخصية الكاتب
172-170	الزمن والمكان
175-173	النزعة القصصية
177-176	النتائج والتوصيات
185-178	فهرس المصادر والمراجع

فن السيرة في الأدب الأيوبي

كتاب الاعتبار أنموذجاً

حازم فارس أبو شارب

المشرف الأستاذ الدكتور : سعود محمود عبد الجابر

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى دراسة فن السيرة في الأدب الأيوبي (كتاب الاعتبار أنموذجاً) ، وتتبع تطورها ، من خلال دراسة تفصيلية لهذا الفن الأدبي القديم ، وتتبع نشأته ، وبيان المساحة التي شغلها هذا الفن في الأدب العربي القديم ، ثم دراسة البناء الفني لهذا الفن .

وقد قسمت هذه الدراسة إلى خمسة فصول، فقد تناول الفصل الأول مقدمة الدراسة وأهميتها ، ومحدداتها، والحياة السياسية في العصر الأيوبي، وتطور الحياة العلمية والأدبية في ذلك العصر .

وتضمن الفصل الثاني : تعريف السيرة لغة واصطلاحاً ، وتعريف السيرة الذاتية والغيرية في الأدب العربي وتطورهما حتى العصر الأيوبي .

و تناول الفصل الثالث : تطور السيرة في الأدب الأيوبي ، وبيان أثر الحروب الصليبية في تطور هذا الفن ، ومقارنة بين نموذجين للسيرة الغيرية والذاتية في العصر الأيوبي هما النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية لعامة اليميني ، والنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد .

وخصص الفصل الرابع : للحديث عن سيرة أسامة بن منقذ (كتاب الاعتبار) ، وتناول ، حياة أسامة وآثاره ، والغاية من سيرة أسامة ، ودراسة الجانب السياسي ، والاجتماعي ، والديني والفكري والأدبي فيها .

و تحدث الفصل الخامس: عن البناء الفني لسيرة أسامة بن منقذ ، فقد تناول ،العنوان ،وبروز شخصية الكاتب ، والواقعية ، والنزعة القصصية ، واللغة ، والسرد والحوار ، والزمن والمكان ،ثم النتائج والتوصيات ، وقائمة المصادر والمراجع .

BIOGRAPHICAL ART IN AYYOUBI LITERATURE AL ECTIBAR ASEXAMPLE

Student: Hazem Fares Abu Shareb

Supervisor : Dr.Saud Mahmoud Abd Al- Jaber

Abstract

This study aims to study the art of biography in literature Ayoubi (AL ECTIBAR ASEXAMPLE), and track its development, through a detailed study of this literary art old, and keep track of its inception, and the statement of the space occupied by this art in Classical Arabic Literature, and then study the artistic construction of this art.

This study has been divided into five chapters, the first chapter discusses the introduction, and the importance of the study and their limitations, and political life in the Ayyubid period, and the evolution of scientific and literary life in the Ayyubid period.

The second chapter include: definition of the language biography and idiomatically, and the definition of CV and altruism in Arabic literature and their development until the Ayyubid period.

And Chapter Three: Evolution of biography in literature, Ayyubid, and the statement of the impact of the Crusades in the evolution of the art of biography in the Ayyubid period, and a comparison of two models of the biography of altruism and self-Ayyubid two jokes in modern News Minister of Egypt Architecture of Yemen, and alnwader Bowl beauties Yusufiya Ibn Shaddad. Then studying the biography of Saladin in the eyes of the Orientalists.

Provision Chapter IV: to talk about the biography of Osama bin Saviour (AL ECTIBAR ASEXAMPLE), eating, Osama's life and its effects, and the end of the biography of Osama, and study the political, social, religious, intellectual and moral in it.

And occur Chapter V: for building technical biography of Osama bin mnqith, the address, title, and the emergence of a personal author, and realism, and the tendency of short stories, language, narration and dialogue, and time and place, and the statement in the biography of Osama, and the biography of Osama in the eyes of the Arabs and the Orientalists, and the findings and recommendations , and a list of sources and references.

الفصل الأول

المبحث الأول

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين وبعد :

يرجع فن كتابة السير إلى مدونات الإنسان في كل الحضارات القديمة , منذ أن نقش الإنسان اسمه على جدران المعابد بل والمقابر قبلها , ربّما سعيا إلى الخلود ومواجهة النسيان .
فالتراث النثري العربي , زاخر بالعديد من تلك السير التي تتسم بما هو ذاتي الطابع عامي الاهتمام, ولعل سيرة ابن إسحاق حول حياة الرسول صلى الله عليه وسلم من أوائل كتب السير في تراثنا الأدبي, واستمر فن السيرة بالتطور ونشط في العصر الأيوبي نشاطا كبيرا وتعددت أنواعه ومضامينه , وكان للمراحل السابقة التي مرّ بها هذا اللون أثر واضح في هذا التطور, وستناقش هذه الدراسة هذا الرأي, وتحاول توضيحه وبيان دوافع تطور السيرة والمميزات الفنية لها في ذلك العصر . وستقوم هذه الدراسة أيضا بدراسة فن السيرة في العصر الأيوبي دراسة أدبية فنية تحليلية, والتركيز على تطور فن السيرة في ذلك العصر, وسوف تتناول بالدراسة والتحليل كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ , الذي يعد من أشهر كتب السيرة في ذلك العصر.

• مشكلة الدراسة:

تكمن مشكلة الدراسة في الإجابة عن الأسئلة التالية :

* ما الدافع وراء كتابة السيرة في العصر الأيوبي ؟

* ما الخصائص الفنيّة المميزة للسيرة في الأدب الأيوبي ؟

* بم امتاز كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ عن غيره من السير في ذلك العصر ؟

* كيف ساهمت السيرة في العصر الأيوبي في تطور هذا الفنّ في الأدب العربي ؟

• أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف إلى فن السيرة في العصر الأيوبي، وبخاصة سيرة أسامة بن منقذ التي تجلت في كتاب (الاعتبار). كما تهدف الدراسة إلى معرفة أسباب تطور هذا الفن في الأدب الأيوبي . وتوضيح الخصائص الفنية المميزة للسيرة في ذلك العصر ، والوقوف على الإضافة الفنية التي أضافها هذا الفن للأدب العربي .

وسيكون التركيز كذلك على تصويرها لطبيعة الحياة في المجتمع العربي الإسلامي آنذاك، وطبيعة الصراع المحتدم مع الغزاة الصليبيين .

• أهمية الدراسة :

تكمن أهمية الدراسة فيما يلي :

* تقدم تصورا عن السيرة في الأدب العربي في العصر الأيوبي، وكيف تطورت، وساهمت في تأريخ الأحداث وتجسيدها بصورة واضحة جلية لا غموض فيها ، وتوضيح مفهوم السيرة في الأدب الأيوبي، والمميزات التي ميزتها عن غيرها من فنون الأدب من اعتدال وبعد عن التكلّف ، ودقة متناهية في تصوير الزمان والمكان والحدث .

* السيرة الذاتية الأولى الأكثر نضجا في أدبنا القديم .

* تطرح هذه السيرة موضوعا مهما هو رؤية الآخر / الفرنجة .

الاعتبار من أهم السير التاريخية في أدبنا القديم .

• ترصد إحساسنا بالتفوق الحضاري العام .

• المصطلحات :

السيرة لغة :

سیر: سيرة: حدث أحاديث الأوائل. وسار الكلام والمثل في الناس: شاع, ويقال هذا مثل سائر، وقد سير فلان أمثالا سائرة في الناس. (1)

السيرة اصطلاحا :

عرفها إحسان عباس في ثنايا كلامه بأنها: تعرض الفرد في نطاق المجتمع, وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة أو منعكسة منها أو متأثرة بها, فإن السيرة في هذا الوضع تحقق غاية تاريخية. (2)

وعرفها ماهر فهمي: بأنها إعادة بناء حياة إنسانية, أو بمعنى آخر, هي عملية تركيبية وقدرة كاتب السيرة على التركيب , مثل قدرة الأثري على تركيب هيكل قديم من بقايا المبعثرة. (3)

الاعتبار لأسامة بن منقذ :

كتاب الاعتبار سيرة أدبية وسجل تاريخي وجغرافي يشهد لصاحبه بالقدرة الأدبية والفنية، تناول فيه مؤلفه مجريات الأحداث في العصر الأيوبي بأسلوب أدبي شائق.

(1) لسان العرب , مادة سير .

(2) انظر : فن السيرة : 11

(3) السيرة تاريخ وفن : 74-75

• حدود الدراسة :

تتناول هذه الدراسة تطور فنّ السيرة في العصر الأيوبي ، والخصائص الفنيّة المميزة له، كما أنها تتناول كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ ، والوقوف على تطور فنّ السيرة الذاتيّة في الأدب الأيوبي من خلاله ، و أهم الخصائص والمميزات والرؤى الفنيّة ، وتنوع المضامين التي تشتمل عليها السيرة في ذلك العصر .

• منهجية الدراسة :

اعتمدت هذه الدراسة على منهج البحث التاريخي ، والمنهج الوصفي التحليلي وتحليل المضمون .

• الإطار النظري والدراسات السابقة :

تعد السيرة في أدبنا العربي من أهم فنون الأدب، ولذلك تعرض لها مجموعة من الباحثين بالدراسة والبحث.

ولا شك في أن السيرة في الأدب الأيوبي تمثل مرحلة من مراحل تطور هذا اللون الفني في الأدب العربي، ولذا ، درسها عدد من الدارسين، وفيما يلي عرض لبعض تلك الدراسات التي تمكّنت من الوصول إليها:

*حسن (1955م) ، طرق هذا الكتاب موضوع التراجم ونشأتها في القديم والحديث ، وأنواع كتب التراجم ، وعرض بإيجاز لتطورها في الأدب العربي ، وتحدث عن كتاب الاعتبار بإيجاز شديد ، ورأى أن هذا الكتاب يصور سيرة أسامة بن منقذ وأعماله وفروسيته ، كما أنه يصور لنا طائفة من صور المجتمع الإسلامي في العصر الأيوبي ، وأفادت الدراسة من الكتاب من خلال التعرف على ملامح تطور السيرة في الأدب العربي وبخاصة السيرة الذاتية.

* ضيف (1956م)، طرق المؤلف في كتابة موضوع الترجمة الشخصية، وقسمها إلى تراجم علمية وأدبية وسياسية، وتناول كل نوع من هذه الأنواع بالبحث والدراسة. وتحدث عن كتاب الاعتبار في عدد محدود من الصفحات ضمن التراجم السياسية، وعرف بمؤلفه ومكانته الأدبية، كما وضح بعض الجوانب التي تناولها الكتاب، وعرض لأهميته ومنزلته، وأفادت الدراسة منه في التعرف على بعض الملامح الفنية والعلمية والسياسية في سيرة أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار.

* عباس (د.ت)، تناول المؤلف في كتابه هذا مفهوم السيرة، وتطورها، والمميزات الفنيّة المميزة لها، وتتبع نشأتها في الأدب العربي حتى العصر الحديث. وقد أفادت الدراسة منه في التعرف على تطور فن السيرة الذاتية في الأدب العربي، والتميز بين السيرة الفنية عن غيرها من السّير التي عرفها العرب والغرب ، والتّعرف على بعض الملامح الفنيّة التي ذكرها عن كتاب الاعتبار من خلال عرضه له عرضاً موجزاً .

* فهمي (1970م)، عرض مؤلف هذا الكتاب لمفهوم السيرة وأسسها، وتناول موضوع السيرة بين الأسطورة والتاريخ، وبناء السيرة وتطورها بصورة عامة في التراث العربي والغربي حتى العصر الحديث، ووقف وقفة تفصيلية عند تطور السيرة الذاتية وطبيعتها وخصائصها الفنيّة.

* حسن (1972م) ، تناول المؤلف في الكتاب حياة أسامة بن منقذ ، وتحدث عن ذكريات أسامة ومشاهداته في المعارك الحربيّة ، والأحداث السياسيّة وغيرها ، وتعرض بإيجاز لكتاب الاعتبار ، وركز على الأحداث والجوانب التاريخيّة فيه ، كما استخلص من خلاله بعض المعاني الحضارية التي كانت تسود المجتمع الإسلامي آنذاك ، التي تدل على سمو هذه الحضارة وعظمتها وإنسانيتها . وقد أفادت الدّراسة من الكتاب في التّعرف على حياة أسامة بن منقذ ، وأهم الأحداث التي تعرض لها في حياته ، وكيف ساهمت في نمو أدبه وتفوقه في أغلب المجالات السياسيّة والعلميّة والأدبيّة وغيرها .

* عبد الدايم (1975م) ، عرض المؤلف في كتابه لمفهوم التّرجمة الذاتيّة والملاح البارزة في بنائها الفنيّ ، ومصطلحاتها ، وقضاياها ومفاهيمها .

وتناول بعض التراجم الذاتية ، وتتبع الوقوف عندها تتبعا تاريخيا ، ثم تناولها بالنقد والتفسير، وتحدث المؤلف عن كتاب الاعتبار بإيجاز ، ورأى أنه أقرب التراجم الذاتية جميعا في التراث العربي إلى المفهوم الحديث ، إذ نهج المؤلف في كتابه منهجا قصصيا شديد الإحكام ، وكان في غاية الحذق في عرض الأحداث وسردها في صورة أدبيّة قصصيّة . وقد أفادت الدّراسة من الكتاب في التّعرف على مفهوم السّيرة الذاتية ، وتطور السّيرة الذاتية في الأدب العربي .

* العمد (1981م) ، ويدور الكتاب حول كتب التّراجم والسّير في الأدبين العربي والإنجليزي ، في العصور القديمة ، والعصور الوسطى ، وعصر النهضة ، والعصر الحديث ويعرض بعجالة سريعة لكتاب الاعتبار ، ويتحدث بإيجاز شديد عن بعض سماته الفنية من حيث بساطة الأسلوب ، والأمانة في النّقل ، والصدق ، والرواية ، والدقة في الملاحظة وأفادت هذه الدراسة منه في التعرف على تطور السيرة في الأدب العربي ، ومعرفة بعض الخصائص والمميزات الفنية التي أمتاز بها كتاب الاعتبار عن غيره من الكتب .

* لوجون (1994م) ، تناول الكتاب فن السيرة الذاتية في الأدبين العربي والغربي ، وعلاقتها بالتاريخ ، والتطور التاريخي للسيرة الذاتية ، ودراستها دراسة تفصيلية من حيث تأثيرها بالأدب العربي ، وكيف أسهم هذا اللون في تطور الأدب بشكل عام .

* قيطاز (1998م) ، يتناول الكتاب دراسة حياة أسامة بن منقذ ، والمراحل التي مر فيها أثناء ترحاله من مكان لآخر ، والأحوال التي عاصرها ، وبين أن الفترة التي عاشها أسامة أنها فترة مضطربة من التاريخ ، حفلت بالحروب بين المسلمين والإفرنج، وصور جهوده التي قام

بها ورجع المؤلف إلى كتاب الاعتبار، وتناوله تناولا تاريخيا ، موضحا بعض الأحداث التي جرت في عهد مؤلفه ، وبعض آثاره ، وكيف ساعدت على نمو سيرة ابن منقذ، وتطور الأحداث فيها .

ونلاحظ مما سبق أن الدراسات السابقة قد تناولت موضوع السيرة في الأدب الأيوبي بإيجاز شديد، وعرضت له عرضا سريعا، ولم يحظ هذا العصر بدراسة مستقلة، تتناول موضوع السيرة من حيث مفهومها وأنواعها وخصائصها.

وسوف نتناول هذه الدراسة موضوع السيرة في الأدب الأيوبي من جوانبه شتى، وتبين مفهوم السيرة وأقسامها وتطورها في ذلك العصر.

المبحث الثاني

الحياة السياسيّة في العصر الأيوبي

الحياة العلميّة والأدبيّة في العصر الأيوبي

• الحياة السياسيّة في العصر الأيوبي .

تعرضت البلاد العربية والإسلامية في نهاية القرن الخامس للهجرة ، لخطر داهم تمثل في الحملات الصليبيّة ، التي اندلعت نيرانها (سنة 481هـ) .

والباحث في تاريخ العرب والمسلمين ، يجد أن البلاد العربيّة والإسلاميّة آنذاك ممزقة الأوصال ، متردية الأحوال ، فالدولة العباسية في بغداد قد ضعفت ، ولم يعد للخليفة سلطة على أغلب أجزاء الدولة ، والخلاف محتدم بينها وبين الدولة الفاطمية في مصر ، التي لم يكن حالها أفضل من حال دولة بني العباس .

فالنّظر في تاريخ الدولة الإسلامية يلمح بجلاء ذلك الصراع المؤلم الذي كان ينخر جسدها ويزيد في تفككها وضعفها ، فضلا عمّا كان يجري فيها من فتن داخلية في دولتي العباسيين والفاطميين مما زاد في هوة الصدع ، وتردي الأوضاع الداخلية والخارجية فيهما ، فالدولة العباسيّة كانت مشغولة بالسلاجقة الذين سيطروا على خلفائها ، وأصبحوا يتدخلون في أمور الدولة وسياستها.(1)

وقد شغل السلاجقة أيضا بنزاعات داخلية فيما بينهم حول السلطة ، فقد كانت وفاة السلطان ملكشاه⁽²⁾ عام (485هـ / 1092م) ، بداية لتفكك دولة السلاجقة ، فقد خلق هذا الأمر الفوضى في دولتهم القوية ، وتسلسل إليها التمزق والضعف⁽³⁾ .

ولم تكن الخلافة الفاطمية أحسن حالا من الخلافة العباسية ، فقد بلغت هي الأخرى درجة كبيرة من الضعف، بسبب ضعف الخلفاء ، وتنازع الوزراء على الحكم ، وكثرة الحروب بين

(1) تاريخ دولة آل سلجوق : 228 - 235

(2) هو ملكشاه بن ألب أرسلان الملقب بجلال الدولة ، كان من أحسن الملوك سيرة حتى لقب بالعدل ولد 447هـ وتوفي 485هـ في بغداد ، ثالث سلاطين السلاجقة ، وفيات الأعيان : 2 / 123

(3) الكامل في التاريخ : 214 / 10 - 216

عناصر الجيش المختلفة ، فضلا عما أصاب مصر من كوارث ، أدت إلى ضعفها وطمع الأعداء بها ، فقد أدى العداوة المذهبي بين المسلمين آنذاك إلى تفرق كلمتهم ، وعدم اتفاقهم على أمر واحد (1) .

وبالتالي كان هذا أحد الأسباب التي مهدت لنجاح الصليبيين في حملتهم الأولى ضد المسلمين . ولم يكن هذا الضعف والانقسام في بلاد الشام والعراق فقط، بل كان أيضا في مصر، فقد كان أمراؤها في منازعات فيما بينهم من أجل السلطة ، ويشير إلى ذلك ابن تغري بردي قائلا : " ولما استهلكت سنة ثمان وثمانين خرج الأفضل بعساكر مصر إلى الإسكندرية وهناك نزار وأفتكين(2) ، فكانت بينهم حرب شديدة بظاهرة الإسكندرية ، انكسر فيها الأفضل بمن معه ورجع إلى القاهرة منهزما ، فخرج نزار ونهب أكثر البلاد بالوجه البحري "(3) .

ويدل هذا القول على تردي الأوضاع وسوءها في مصر من خلال المنازعات والتنافس على السيادة ، ولاشك أن هذا قد زاد في طمع الصليبيين واستغلالهم لهذه الحروب الداخلية، التي أدت إلى ضعف الدولة وتردي الأوضاع فيها .

وأجج الصراع ، وزاده حدة سعي الفاطميين إلى ضم الشام لأهميتها السياسية والدينية . فالعباسيون يريدون الحفاظ عليها ، والفاطميون يريدونها منطلقا لهم ودرعا لدولتهم ، وأدى هذا الانقسام إلى خلخلة أركان المسلمين .

فقد كانت الدولة الفاطمية في هذه الآونة تعاني فسادا وضعفا شديدين ، وذلك لما كان يحاك فيها من دسائس ومؤامرات على مناصب الوزارة والحكم ، كان الخلفاء يتولون الحكم وهم

(1) الكامل في التاريخ : 10 / 255.

(2) هم أصحاب مصر والإسكندرية ، تولوا الحكم فيها أيام الأفضل ، وانفصلوا عنه ، ودامت بينهم حروب وانتهت بمقتلها . النجوم الزاهرة : 5 / 14 .

(3) المصدر السابق : 5 / 14.

صغار، ويستبد بتدبير أمورهم الوزراء .

وكان الخلفاء الفاطميون أنفسهم من أسباب هذا النزاع بين الوزراء ؛ وذلك لأنهم كانوا يتبعون سياسة غير سليمة في طريقة تعيينهم ، فكانوا يعهدون بالوزارة إلى من أطاح بسابقه ، وتغلب عليه ، بدلا من أن يضربوا على يد الخارج على النظام منهم ، ليقطعوا الخلاف ويحسموا الأمر ، فعملوا بذلك على إشعال نار الفتنة ، وتوسيع شقة الخلاف ، والنزاع بين وزرائهم فعملوا في سقوط دولتهم .

وصور ابن الأثير حال مصر في العهد الفاطمي فقال : " كانت الوزارة في مصر لمن غلب والخلفاء من وراء حجاب ، والوزراء هم المتكلمون، وقلَّ أن وليها أحد ، إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك " (1).

والجدير بالذكر أن هذا التمزق الذي عانتها الدولة الإسلامية بين حكامها فت في عضدها، ومكن الغزاة الصليبيين من السيطرة على سواحل الشام كلها(2) .

ولقد لعب الزنكيون دورا بارزا في توحيد القوى الإسلامية لمواجهة الصليبيين ، وكان عماد الدين زنكي (3) أول من احتضن نجم الدين أيوب،(4) ونمى شجاعته بأن أقطعه بعلبك ، وجعل

(1) ذيل تاريخ دمشق : 460 - 461

(2) النجوم الزاهرة : 5 / 167

(3) عماد الدين زنكي أو الأتابك زنكي بن قسيم الدولة الحاجب آق سنقر ، كان والده أول ملوك الدولة الأتابكية في الموصل ، وكان من كبار الشجعان الذين قاوموا الإفرنج ، قتل وهو نائم عندما حاصر قلعة جعبر سنة 541هـ . الأعلام 3/50.

(4) هو أبو الشكر أيوب بن شاذي بن مروان الملقب بالملك الأفضل نجم الدين أيوب (ت568هـ) والد صلاح الدين ، اتسم بالحكمة والحنكة والقدرة على تسيير أمور الدولة . انظر وفيات الأعيان : 1/255 .

شيركوه⁽¹⁾ قائدا للجيش ، وتوالت اهتمامات الزنكيين بالأيوبيين بأن جعل صلاح الدين وزيراً لهم في مصر⁽²⁾.

وتمكن عماد الدين زنكي من أن يثبت دوره كسياسي بارع وعسكري متمكن، ومسلم واع، فقد أدرك الخطر الذي حلّ بالعالم الإسلامي (الغزو الإفرنجي) فقام بتوجيه الظروف لخدمة المسلمين، فجمع القوى الإسلامية لضم المدن والإمارات والأقاليم، التي عانت مشكلة التجزئة والانقسام وتوحيدها⁽³⁾.

فقد كانت سياسته تهدف إلى توحيد الجبهة الإسلامية للوقوف أمام الخطر الصليبي ، فلما فتح مدينة بعلبك (533هـ / 1139م) جعل نجم الدين أيوب والياً عليها ، ولم يزل متوليها إلى أن قتل عماد الدين زنكي⁽⁴⁾.

ثم جاء من بعده ابنه نور الدين الذي أخذ يتطلع إلى مصر التي كانت تعاني من الفوضى والتمزق ، وسعى إلى توحيدها مع شقيقته الشام، وذلك للوقوف في وجه الغزو الصليبي. واتبع نور الدين نهج والده في توحيد القوى الإسلامية ، واتخذ من حلب مركزاً لتحركاته ضد الفرنجة⁽⁵⁾.

وقد تمكن نور الدين من ضم مدينة دمشق (549هـ)، بمعاونة قائده أسد الدين شيركوه بعد أن قام والده عماد الدين بمحاولات عديدة لإخضاعها .

(1) هو أبو الحارث شيركوه بن شاذي بن مروان الملقب المنصور أسد الدين (ت 564هـ) وهو عم الملك صلاح الدين . الروضتين في أخبار الدولتين : 1 / 329 - 338 .

(2) الكامل في التاريخ: 10 / 355.

(3) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام والجزيرة العربية : 12

(4) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك : 9

(5) إمارة الكرك الأيوبية : 44

واشترك صلاح الدين ⁽¹⁾ مع عمه شيركوه في حملة وجهها نور الدين للاستيلاء على مصر سنة 559هـ ، فكانت وقائع ظهرت فيها مزايا صلاح الدين العسكرية ، وتم لشيركوه الظفر أخيرا باسم السلطان نور الدين ، فاستولى على زمام الأمور بمصر واستوزره خليفته العاضد الفاطمي ⁽²⁾.

ولكن شيركوه ما لبث أن مات فاختر العاضد ⁽³⁾ للوزارة وقيادة الجيش صلاح الدين ، ولقبه بالملك الناصر ⁽⁴⁾ . وذهب بعضهم إلى أنه اختار صلاح الدين ليوليه الوزارة ، لكونه صغير السن ، قليل الأتباع في الجيش النوري الصلاحي بمصر ، مما يسهل انقياده له ⁽⁵⁾.

وأكد ابن شداد أن صلاح الدين بعد توليه الوزارة الفاطمية ، قد تغلب على الأمر كله ، وأدرك ما ينتظره من مهام ضخمة في استرداد ساحل الشام من الصليبيين ، وفي إزالة الدولة الفاطمية

⁽¹⁾ السلطان الناصر ، صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي ، أبو المظفر ، ولد في قلعة تكريت عام (532هـ - 1137م) ، كان واحدا من أعظم ملوك الإسلام ، ومن أهم الشخصيات التاريخية التي أنجبتها أمتنا الإسلامية على امتداد القرون الطويلة من تاريخها . كان أبوه نجم الدين ، وأهله من قرية دوين (في شرقي أذربيجان) ، وهم بطن من الروادية من قبيلة الهذبانبة من الأكراد ، نزلوا بتكريت في العراق ، ثم ولي أبوه أعمالا في بغداد والموصل ودمشق ، فدخل مع أبيه وعمه شيركوه في خدمة نور الدين محمود ابن الأتابك عماد الدين زكي ، صاحب دمشق وحلب والموصل . اشترك مع عمه شيركوه في حملة وجهها نور الدين للاستيلاء على مصر سنة 559هـ ، فكانت وقائع ظهرت فيها مزايا صلاح الدين العسكرية ، وتم لشيركوه الظفر أخيرا ، باسم السلطان نور الدين ، فاستولى على زمام الأمور بمصر ، واستوزره خليفته العاضد الفاطمي ، ولكن شيركوه ما لبث أن مات ، فاختر العاضد للوزارة وقيادة الجيش صلاح الدين ، ولقبه بالملك الناصر . ثم هاجم الإفرنج دمياط سنة 565هـ فصداهم صلاح الدين ، ثم استقل بملك مصر ، وكان الهدف الأكبر أمام مخيلة صلاح الدين (تحرير القدس الشريف) ، وهكذا كان أعظم انتصار له على الإفرنج في فلسطين في " يوم حطين " الذي تلاه استرداد طبرية وعكا ويافا إلى مابعد بيروت . وخلف 17 ولدا وابنة واحدة . انظر : النوادر السلطانية : 2 .

⁽²⁾ وفيات الأعيان : 6 : 145

⁽³⁾ هو أبو محمد عبدالله الملقب بالعاضد بن يوسف ، آخر خلفاء وملوك مصر من العبديين ، ولي الخلافة بعد وفاة عمه الفائز (555هـ / 1160م) . المصدر السابق : 109/3 .

⁽⁴⁾ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب : 168/1-170.

⁽⁵⁾ المصدر السابق : 1 / 170.

والدعوة الإسماعيلية من مصر ، وهو لا يزال وزيراً للفاطميين ، إذ يقول ابن شداد: " ولقد سمعته يقول : لما يسر الله لي الديار المصرية ، علمت أنه أراد فتح الساحل ، لأنه أوقع ذلك في نفسي ، ومن حين استتب له الأمر ، ما زال يثبث الغارات على الإفرنج ، وغشي الناس من عجائب الأفاضل والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام ، وهو وزير متابع للقوم وغرس في أهل البلاد العلم والفقه والدين ، والناس يهرعون إليه من كل صوب ، ويفدون عليه من كل جانب ، وهو لا يخيب قاصدا ، ولا يعدم رافدا إلى سنة خمس وستين وخمسة (1)".

وبتولي صلاح الدين لأمر الوزارة المصرية سنة (564هـ / 1168م)، أخذت الدولة الفاطمية بالضعف، وبدأ صلاح الدين جهوده للعمل على إسقاط الدولة الفاطمية بجميع مظاهرها السياسية والمذهبية (2) .

ولقد واجه صلاح الدين خلال وزارته خطر محاولة الإفرنج السيطرة على مصر وحصارهم لدمياط ، وسبب قدومهم إلى مصر خوفهم من أن يملك صلاح الدين مصر ويضعف أمرهم ، ويقضي على نفوذهم في الشام ، وهذا ما أورده ابن شداد : (لما علم الإفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم ، وما تم للسلطان من استقامة الأمر في الديار المصرية ، علموا أنه يملك بلادهم ويخرب ديارهم ، ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك ، فاجتمع الإفرنج وحدثوا نفوسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها ورأوا قصد دمياط لتمكين القاصد لها من البر والبحر) (3).

ووصل الإفرنج إلى حصار دمياط ، فكتب صلاح الدين إلى نور الدين بالشام يستنجده ويخبره بصعوبة موقفه ، ويحثه على الإسراع في الإمدادات العسكرية ، ومما جاء في كتابه

(1) النوادر السلطانية : 104.

(2) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريرية : 2 / 187.

(3) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب : 1 / 179 - 180.

إلى نور الدين : (إني إن تأخرت عن دمياط ملكها الإفرنج ، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها وأموالها بالشر ، وخرجوا عن طاعتي وساروا في إثري والإفرنج من أمامي فلا يكون لنا باقية) .⁽¹⁾

فما كان من نور الدين إلا أن أرسل الإمدادات إلى دمياط، وتتبعته الإمدادات من القاهرة والشام، فلما رأى الإفرنج ذلك، انسحبوا وتراجعوا، فسيرت الكتب إلى الشام بالبشارة برحيل الإفرنج عن دمياط.⁽²⁾

ولقد كان صلاح الدين إبان وزارته للفاطميين يستميل المصريين إليه ، بما قام به من إصلاحات داخلية ، قال ابن واصل : (ثم شرع صلاح الدين باستمالة قلوب الناس إليه، وبذل من الأموال ما كان أسد الدين قد جمعه ، وطلب إلى العاضد شيئاً يخرج به ، فلم يمكنه منعه، فمال إليه الناس ، وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر ، والثبات فيه ، وضعف أمر العاضد ")⁽³⁾.

وكانت خطوة صلاح الدين الأولى هي قلب النظام القضائي الشيعي في مصر ، واستبدال القضاة الشيعيين بقضاة شافعيين، ثم قمع فتنة السودان ، وبذلك تحققت رغبة نور الدين بقطع الدعوة الفاطمية بعد أن تغلب صلاح الدين على العقبات التي واجهته .⁽⁴⁾

وباستقرار الأمور لصلاح الدين الأيوبي في مصر كتب إليه نور الدين بضرورة قطع الخطبة للفاطميين وإقامتها للعباسيين ، إلا أن صلاح الدين اعتذر بالخوف من وثوب أهل مصر عليه وامتناعهم من الإجابة لذلك ، لميلهم إلى الفاطميين ، فلم يصغ نور الدين لذلك ، وأرسل إليه

⁽¹⁾ الكامل في التاريخ : 11 / 351 - 352

⁽²⁾ مفرج الكروب : 1 / 183

⁽³⁾ المصدر السابق : 174/1

⁽⁴⁾ الروضتين : 2 / 408

يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة فيه ، واتفق أن العاضد مرض ، فاستشار صلاح الدين الأمراء بكيفية قطع الخطبة للفاطميين ، وإقامتها للعباسيين ، فمنهم من أقدم على المساعدة ، وأشار بها ، ومنهم من خاف ذلك ، إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين ، فلما كان يوم الجمعة من محرم سنة 567هـ / 1171م ، أقيمت الدعوة للمستضيء بأمر الله الخليفة العباسي⁽¹⁾ ، فلم يلق هذا الأمر أي معارضة له ، وانتظم الأمر ، وكوتب الخطباء في ذلك في سائر الأقاليم فخطبوا⁽²⁾ .

وبعدها عمل صلاح الدين على إصلاح الأنظمة السياسية والاجتماعية ، بتحسين الحدود المتاخمة للصليبيين⁽³⁾.

وبعد أن أرسى قواعده الداخلية، ورسّخ معالم الأمن والاستقرار ، أصبح هو صاحب الكلمة الأولى في مصر.

وبعد وفاة نور الدين محمود (569هـ/1173م) جهز صلاح الدين عساكره ، وتوجه إلى البلاد الشامية ، التي كانت أوضاعها مضطربة بسبب وفاة نور الدين محمود وصغر سن ولده الصالح إسماعيل ، إضافة إلى وجود الإفرنج وطمعهم في السيطرة على البلاد ، فكان قصد صلاح الدين من توجهه للشام ، جمع شملها ، والإحسان إلى أهلها وأمن سهلها وجبلها ، ونصرة الإسلام ، وإظهار القرآن⁽⁴⁾.

فاستولى صلاح الدين على بعلبك وحمص وحماة وحلب، ثم ترك حلب للملك الصالح إسماعيل ابن نور الدين.

(1) هو المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن المستجد بن المستظهر ، ولد سنة 536هـ ، وبويع بالخلافة بعد وفاة والده المستجد سنة 566هـ . انظر : مفرج الكروب : 1 / 192 - 195 .

(2) المصدر السابق : 1 / 192 - 195 ، والروضتين : 2 / 191.

(3) الروضتين في أخبار الدولتين : 1 / 200 - 203 .

(4) المصدر السابق : 2 / 622 - 623.

وهكذا دانت البلاد له ، من بلاد الجزيرة والموصل شرقا إلى برقة غربا ، ومن بلاد الأرمن في آسيا الصغرى شمالا إلى آخر حدود النوبة واليمن جنوبا .

وبعد أن دانت لصالح الدين بلاد مصر والشام و جزء من العراق والجزيرة وغيرها من البلاد المترامية الأطراف، وضع نصب عينيه هدفا واحدا لا يحيد عنه ، ألا وهو مجاهدة الصليبيين بالشام ، والعمل على اقتلاع شأفتهم . وكان الصليبيون قد أقاموا لأنفسهم في الساحل الشامي منذ عام 491هـ من أنطاكية شمالا إلى عسقلان جنوبا ، أربع دول هي: إمارة أنطاكية ، وإمارة الرها ، ومملكة القدس ، وإمارة طرابلس .

وبتحقيق صلاح الدين لأهدافه السامية ، من توحيد الأمة الإسلامية وجمع شملها ، وتوحيد صفها أمام الخطر المحدق بها ، والإعداد الحربي ، والأخذ بالأسباب من إعداد الجيوش عسكريا ومعنويا لقتال الصليبيين ، تمكن من إعلان الجهاد في سبيل الله ، وجمع عساكره من جميع الممالك الإسلامية ، وهياهم لمعركة حاسمة فكان تحرير القدس ، التي رزحت تحت الاحتلال الإفرنجي ، وكان أعظم انتصار له في معركة حطين سنة (583هـ / 1187م) التي استطاع بها أن يهزم الصليبيين شر هزيمة ، و تلا ذلك استرداد طبرية وعكا ويافا إلى ما بعد بيروت ، ووقائع على أبواب صور ، فدفاع مجيد عن عكا انتهى بخروجها من يده بعد أن اجتمع لحربه ملكا فرنسا وانكلترا ، بجيشيهما وأسطوليهما .

وأخيرا ، عقد الصلح بينه وبين قائد الحملة الصليبية الثالثة ، ملك انكلترا ، (ريتشارد قلب الأسد) ، بالرملة في شعبان سنة 588هـ ، على أن يحتفظ الإفرنج بالساحل من عكا إلى

يافا ، وأن يسمح لحجاجهم بزيارة بيت المقدس ، ويكون الساحل من أوله إلى الجنوب لصالح الدين⁽¹⁾ .

لم يكن طموح هذا القائد المسلم الفذ ليقف عند هذا الحد ، بل أراد أن يمثل سيرة الفاتحين الأوائل ، فيسير بجيوشه شرقا وغربا ، حتى يتحقق له ما يصبو إليه من أهداف وطموحات. وقد ذكر ابن شداد ، وقد أسر له صلاح الدين نفسه بقوله : " في نفسي متى يسر الله لي فتح الساحل ، قسمت البلاد ، وأوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت "⁽²⁾ .

حرص صلاح الدين على مواصلة السياسة التي بدأها عماد الدين زنكي ، وسار عليها ابنه نور الدين، والتي تهدف بالدرجة الأولى إلى توحيد كلمة المسلمين تحت راية الإسلام ، وجمع صفهم ، لذلك سعى من البداية إلى توحيد بلاد مصر والشام تحت رايته ، فتحقق له ذلك .

ولكن القدر لم يمهل طويلا، إذ انتقل إلى جوار ربه سنة 589هـ، فطويت بذلك صفحة مشرقة من تاريخ الإسلام، وقد ظهرت أصداء هذا كله في أدب العصر الأيوبي⁽³⁾.

وكانت وفاة صلاح الدين بداية الانهيار والتشتت لهذه الوحدة التي أقامها بكفاحه وجهاده المستمر طوال حكمه، فقد كان صلاح الدين قد أسند لأبنائه وإخوانه بعض الممالك لمساعدته في حمل أعباء الدولة الواسعة الأرجاء ، فالديار المصرية أسندت لابنه الملك العزيز ، عماد

(1) انظر :الكامل في التاريخ : 9 / 214

(2) الروضتين في أخبار الدولتين : 2 / 213

(3) العبر في خبر من غير : 4 : 270

الدين عثمان (1) ، وأسندت الشام بما فيها بيت المقدس لابنه الأكبر الأفضل نور الدين علي (2) وحلب لابنه الملك الظاهر غازي (3) ، واليمن لأخيه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب (4) وحمص والرحبة لأسد الدين شيركوه بن محمد (5) ، واستقرت جميع تلك الممالك في أيديهم بعد وفاته، وكان ينتظر أن تسير الأسرة الأيوبية على الخطى التي سار عليها صلاح الدين ، وتتواصل الفتوحات الإسلامية، ويسود الأمن والاستقرار جميع تلك الممالك ، ولكن ما لبث الحال ، أن تغير ، فقد دبّ الخلاف بين الأفضل والعزیز، فقد استوزر الأفضل ، ضياء الدين بن الأثير (6) وفوض أمور مملكته له ، فما كان منه إلا أن قدم النصح والإرشاد له بطرد وزراء أبيه وما كان منه إلا أن استجاب لابن الأثير ، واستبدل بهم غيرهم من الأمراء، وذهب هؤلاء الأمراء إلى أخيه العزيز ، وأعلموه بما آلت إليه الأمور في بلاد الشام من أمر الأفضل وابن الأثير ، وقام العزيز بعزل أخيه عن الشام سنة 592هـ ، غير أن العزيز توفي سنة 595هـ بعد أن التف حوله الأدباء والشعراء ، فآل الحكم إلى ابنه الصغير

(1) هو السلطان الملك العزيز أبو الفتح عماد الدين عثمان بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، صاحب مصر ، ولد في جمادى الأولى سنة 567هـ ، تملك مصر بعد أبيه ، مات في العشرين من محرم ، سنة 595هـ ، عاش 28 سنة ، انظر: سير أعلام النبلاء ، 21 \ 291 - 292 .

(2) هو أبو الحسن علي بن يوسف ، تملك دمشق ، ثم حاربه العزيز أخوه وقهره ، ثم لما مات العزيز أسرع الأفضل إلى مصر ، توفي الأفضل في صفر سنة 622هـ . المصدر السابق : 254/21.

(3) هو الملك الظاهر غياث الدين أبو منصور غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولد في مصر سنة 568هـ ، تملك حلب ثلاثين سنة ، توفي سنة 613هـ ، عن 45 سنة . انظر : سير أعلام النبلاء 296 - 298 / 21.

(4) هو سيف الإسلام طغتكين بن أيوب بن شاذي ، أرسل إلى اليمن سنة 579هـ ، مات في شوال سنة 593هـ ، ودامت دولته أربع عشرة سنة ، المصدر السابق : 21 / 333.

(5) هو أسد الدين شيركوه بن محمد ، أعطاه صلاح الدين حمص والرحبة بعد وفاة أبيه محمد بن شيركوه سنة 581هـ ، فأقام بها وحفظ المسلمين من الإفرنج ، ومات بها سنة 637هـ ، النجوم الزاهرة : 6 / 316.

(6) هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري ، نسبة إلى جزيرة ابن عمر لأنه ولد فيها ، اتصل بخدمة صلاح الدين الأيوبي ، وعمل كذلك بخدمة الملك الظاهر غازي بحلب واستوزره الملك الأفضل ، توفي 637هـ . انظر : الكامل : 11 / 523 .

محمد الذي لم يتجاوز التسع سنين ، ولكن هذا الأمر لم يرق للأمرء ، فراسلوا الملك العادل ليحكم مصر ، فحضر إلى مصر ، وأخذ بزمام الأمور سنة 596هـ . وبذلك فقد دبت الفرقة بين أبناء البيت الواحد ، وفي ذلك يقول القاضي الفاضل " أما هذا البيت فإن الآباء فيه اتفقوا فملكوا ، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا ، وإذا غرب نجم ، فما الحيلة في تشريقه ، وإذا بدا تخريق ثوب فما يليه إلا تمزيقه " (1).

ودارت المناوشات بين ملك مصر وملك الشام ، مع محاولة التدخل من أمير حلب ، وكانت المحصلة النهائية أن استطاع الملك العادل من إحكام سيطرته على الشام . (2)

هذا النزاع داخل البيت الأيوبي ، كان ذا أثر على قوتهم ، مما جعل الصليبيين يدخلون عكا ، ويستولون على القدس ، فعز هذا على الملك العادل ، فأمر بتجهيز الجيش الإسلامي لتحرير بيت المقدس ، إلا أن الموت عاجله فأخذ ابنه الكامل ، على عاتقه إتمام ما سار عليه أبوه ، وهو إخراج الصليبيين من دمياط ، واستمر الصراع بين الملوك في الدويلات الأيوبية ، وبالمقابل استمرت الحروب بين الأيوبيين والصليبيين ، إلى أن جاء الملك الصالح الابن الأكبر للملك الكامل .

ومن السمات الظاهرة في سياسة الملك الصالح بعد توليه الحكم ، اهتمامه ، بالجند والاستكثار من شراء المماليك ، حتى ضاقت بهم القاهرة ، وبنى لهم قلعة في جزيرة الروضة وأسكنهم فيها ، فسماهم " المماليك البحرية ، وهم الذين تولوا الحكم في مصر بعد الأيوبيين .

(1) الروضتين في أخبار الدولتين : 2 / 231 - 233

(2) بدائع الزهور في وقائع الدهور : 2 : 279 - 286 .

الحياة العلمية والأدبية في العصر الأيوبي

• تطور الحياة العلمية و الأدبية في العصر الأيوبي :

انتعشت الآداب في عهد الدولة الأيوبية ، وقد تعددت مناحيها وألوانها ، وذلك بسبب الأحداث السياسية والعسكرية التي تعرضت لها الأمة الإسلامية في هذه الفترة ، فقد شهدت اهتماما بمختلف العلوم والمعارف الدينية واللغوية والأدبية .

حتى وسم العصر الأيوبي بأنه عصر إحياء للفكر والثقافة الإسلامية والعربية ، كما كان عصر إحياء سياسي ، بعد إخراج الصليبيين من بيت المقدس⁽¹⁾.

وقد ساعدت عدة أمور على نمو الآداب في العصر الأيوبي منها ، انطلاق اليد في الإصلاح وما كان لولاية الأمر في هذه الدولة ووزرائها من ملكات أدبية ، وعناية به فضلا عن طبيعة مصر والشام المشجعة على تفتح القرائح الأدبية .

فقد اهتم بنو أيوب بالأدباء والعلماء، وتشجيعهم، وإنزالهم المنزلة الرفيعة التي تليق بهم⁽²⁾ .
فلذا تعددت مجالات الأدب ، وتنوعت فنونه :

■ أولا: حركة التأليف :

نشط التأليف في العصر الأيوبي نشاطا كبيرا من خلال مباشرتهم بتأليف الكتب بأنفسهم .
فما من أمير أو ملك محب للعلم والأدب إلا واجتمع العلماء والأدباء حوله، وألفوا الكتب في شتى فروع الآداب والعلوم المختلفة، فقد كانت حقبة بني أيوب من أخصب الحقب في التأليف والتصنيف ، وكان ملوكها يتفاخرون بتقريب العلماء والأدباء ، وتأليف الكتب بأسمائهم⁽³⁾ .

(1) الأدب في العصر الأيوبي :97.

(2) النجوم الزاهرة 6 / 56- 57 .

(3) الكامل في التاريخ : 9 / 338.

وكانت لكتب الجهاد سوق رائجة عندهم ، وأول من أقبل على هذا العمل هو ابن شداد قاضي صلاح الدين الأيوبي ، فألف له كتابا جمع فيه كل آداب الحرب ، وكل آية قرآنية وردت فيه ، وكل حديث شريف روي في فضله ، وكان صلاح الدين كثيرا ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل (1) .

ولعل أبرز من أهتم بالتأليف من بني أيوب البطل القائد صلاح الدين "الذي كان يجيز المؤلفين بسخاء ، ولم يكن يعطي الجائزة اعتباطا، وإنما كان ينظر فيها ، فإذا لم يتوسم بها نفعا نبذها" (2) . مما أدى إلى ازدياد حركة التأليف ، وخاصة مما كان يجري من جهاد ضد الصليبيين ، يقول ابن شداد : (" وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد ، ويذكر شيئا من أخبار الجهاد ، وأنا ممن جمع له فيه كتابا جمعت فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روي في فضله ، وشرحت غريبها " (3) .

وألف له شَيْتُ بن إبراهيم بن محمد المعروف بابن الحاج القناوي النحوي اللغوي كتاب "ذهن الواعي في إصلاح الرعية والراعي" ، وألف له أسعد بن مَمَاتِي (4) كتابا في سيرته (5) ، وقدم له أبو الحسن علي بن الحسن المعروف بِشَمِيمِ الحلي كتابا في التجنيس سماه " أنيس الجليس

(1) الروضتين في أخبار الدولتين : 2 / 221

(2) نكت الهميان : 169 .

(3) النوادر السلطانية : 21 .

(4) أبو المكارم ، أسعد بن الخطير أبي سعيد مهذب بن مينا بن زكريا الأسعد ابن مماتي المصري الكاتب الشاعر (606هـ) ، نصراني أسلم في الدولة الصلاحية ، وتولى نظر الدواوين بمصر ، وهو أحد الكتاب في الديوان الفاضلي . وفيات الأعيان : 1 / 210 - 213

(5) معجم الأدباء : 250/2 .

في التجنيس"، وكان صلاح الدين شغوفاً بديوان أسامة بن منقذ ، قال العماد الأصفهاني : " عضد الدولة أبو الفوارس مرهف ، وهو جليس صلاح الدين وأنيسه، وقد كتب

ديوان أبيه لصلاح الدين ، وهو لشغفه به يفضله على جميع الدواوين " (1).

كما ألقت كتب أخرى في سيرة صلاح الدين وفتوحاته ، ومن تلك الكتب : (النوادر السلطانية ، أو سيرة صلاح الدين) لابن شداد ، وكتابا (الفيح القسي والفتح القدسي) (والبرق الشامي) للعماد الأصفهاني .

ولم يكن الاهتمام عند الأيوبيين مقصوراً فقط على التأليف ، بل تنوعت ميادين المعرفة والأدب عندهم ، وازدهرت خير ازدهار .

أما النتاجات الأدبية في هذا العصر فكثيرة ، منها مؤلفات أدبية ، وبلاغية ، ونقدية ودينية ، وجغرافية ، وتاريخية ، وغيرها الكثير . ومن الدراسات والمؤلفات التي نشطت في هذا العصر على سبيل المثال لا الحصر : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير و البديع في نقد الشعر ، والاعتبار لأسامة بن منقذ (584هـ) ، وخريدة القصر وجريدة العصر لعماد الدين الأصفهاني (597هـ) . وما ذكر من المؤلفات الأدبية ، إنما هو قليل من كثير ، فلقد تعددت المؤلفات في العصر الأيوبي ، وازدهرت ازدهاراً كبيراً ، وحظيت باهتمام عظيم .

(1) معجم الأدباء : 5 / 131.

■ ثانيا : المكتبات في العصر الأيوبي :

إلى جانب اهتمام بني أيوب بالتأليف والتصنيف ، كانت لهم رغبة كبيرة وولع عظيم بتشجيع المكتبات الكبيرة ، وتعيين المشرفين على تنسيقها وتنظيمها ، وشراء الكتب لها مهما بلغت أثمانها ، وبعدها أوطانها ، وأكبر مكتبة أسست في العهد الأيوبي ، مكتبة الملك المعظم عيسى بن أبي بكر صاحب دمشق ، وكانت تحتوي على كتب نادرة وقيمة ، بعضها بخط مؤلفيها (1).

واشتهرت مكتبة الملك الأمجد مجد الدين الأيوبي ،صاحب بعلبك ، ومكتبة الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ، فإنه كان مولعا بشراء الكتب النادرة الثمينة (2).

فنجد أن المكتبات في العصر الأيوبي لقيت عناية خاصة من السلاطين، والوزراء ، والأدباء وكبار رجال الدولة ، وفي مقدمتهم القاضي الفاضل الذي امتلك مكتبة ضمت في ثناياها مئة ألف مجلد (3) ، والتي تعد من المكتبات المعهودة في هذا العصر ، وقد ذكرها المقرئ في خطه ، وقال: " إنه جعل فيها من كتب القصر مائة ألف مجلد " (4). وقد قال ياقوت الحموي عن حب القاضي الفاضل للكتب : " ... كان جماعة للكتب ، حريصا عليها جدا ، ولم أرَ مع اشتغالي على الكتب وبيعي لها ، وتجارتي فيها ، أشد اهتماما منه بها ، ولا أكثر حرصا منه على اقتنائها وحصل منها ما لم يحصل لأحد " (5).

(1) معجم الأدباء : 270/2

(2) المصدر السابق : 6 / 146

(3) المصدر السابق : 15 / 187 - 188

(4) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : 2 / 366

(5) معجم الأدباء : 187/15 - 188

فحين أدرك السلطان صلاح الدين شغف القاضي الفاضل ، والعماد الكاتب ، وابن شداد بالكتب ، أهداهم معظم الكتب التي وجدها في مكتبة القصر الفاطمي .

وذلك كله ساعد على ازدهار تجارة الكتب ، وتداولها في الشام ومصر ، وذلك لتنافس الناس على اقتنائها ، وشرائها بأثمان الأسعار⁽¹⁾.

فالاهتمام بالمكتبات دليل واضح على الاهتمام بالأدب والعلم وتشجيعه ، مما يدل على رقي الأمة وتقدمها. فلم تكن غاية بني أيوب من اقتناء الكتب المباهاة بل الإفادة منها وتصنيف الكتب .

■ ثالثا : المجالس في العصر الأيوبي :

لم تكن الدولة الأيوبية (567 - 648 هـ) التي قامت على أرض مصر والشام واليمن وأجزاء أخرى من العالم الإسلامي آنذاك تعني بالسيف ، والجهاد المقدس ، والكفاح المرير ، والحرب الضروس ، والوقوف في وجه المحتلين الغاصبين ، الذين زحفوا من الغرب ، وجاسوا خلال الديار بتشجيع من أسيادهم فحسب ، بل كانت تعني أيضا بالقلم ، والقضايا الفكرية ، والشؤون العلمية ، والتأليف ، والترجمة التي بدأها الأسلاف الغيارى. كان صلاح الدين الأيوبي ، بطلا غيورا ، وفارسا جسورا ، ومفكرا فذا ، وعالما متمكنا وأديبا نابها ، أخذ الحديث عن الحافظ ابن أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي⁽²⁾. والشيوخ الإمام إسماعيل بن مكّي بن عوف الزهري⁽³⁾. وحفظ القرآن الكريم ، "وكتاب التنبيه في الفقه

(1) الأدب في العصر الأيوبي : 86

(2) النوادر السلطانية : 9 ، هو الحافظ بن محمد بن أحمد السلفي (576هـ) ، أحد الحفاظ المكثرين . (وفيات الأعيان : 105/1) .

(3) الروضتين في أخبار الدولتين : 1 / 299

للشيخ إبراهيم بن علي بن يوسف ، وحماسة أبي تمام ، وعددا من دواوين الشعراء المشهورين ⁽¹⁾. وقرأ التاريخ، ووقف على دقائقه ، قال قاضيه بهاء الدين بن شداد : " كان حسن العشرة ، لطيف الأخلاق ، طيب الفكاهة ، حافظا لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفا بسيرهم وأحوالهم ، حافظا لأنساب خيلهم ، عالما بعجائب الدنيا ونوادرها ، بحيث يستفيد محاضره منه ما لا يسمع من غيره " ⁽²⁾ .

ولقد أحب بنو أيوب رجال الأدب وقربوهم ، وعقدوا لهم المجالس واستأنسوا بأحاديثهم ومناقشاتهم " وكانت مجالس صلاح الدين منزهة عن الهزل والهزل ، وحافلة بأهل العلم والفضل ، وكان من جالسه لا يعلم أنه جالس سلطانا لتواضعه " ⁽³⁾.

ولقد عرف عن صلاح الدين حرصه على مجالسة العلماء ، والذهاب إليهم مع أبنائه للسمع منهم ، وقد تحدث ابن شداد عن شغف السلطان صلاح الدين بالحديث، ومجالسة العلماء قال : كان رحمه الله شديد الرغبة في سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذي دراية عالية وسماع كثير فإن كان يحظى عنده استحضره وسمع عليه ، فأسمع من كان يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالا له ، وإن كان الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ، ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه " ⁽⁴⁾ .

فقد رعى بنو أيوب المفكرين والأدباء ، وحملة الأقلام المبدعين ، ولا غرابة في أن يقول صلاح الدين مخاطبا بعض جنده : " لا تظنوا أنني ملكت البلاد بسيوفكم ، بل بقلم القاضي

⁽¹⁾ الروضتين في أخبار الدولتين : 18/2 ، 25 .

⁽²⁾ النوادر السلطانية : 34

⁽³⁾ النجوم الزاهرة : 6 : 8

⁽⁴⁾ النوادر السلطانية : 9

الفاضل " (1). إنها مقولة قائد عسكري محنك ، لها مغزى عظيم ، ودلالة كبيرة في دعم أصحاب العقول النيرة ورعايتهم، ودفعهم مع الجنود في رفع كلمة الحق، وإعلاء شأن المشاركة أمام الغزاة الباغين والدخلاء الطامعين ، القادمين من الغرب . فالنهضة الأدبية المباركة ونشاطها في عهد الأيوبيين ، تولدت من بثهم وسائل المعرفة، واحتضانهم الأدباء ، ومصاحبتهم ، والاحتفاء بالوافدين عليهم ، وعقد المجالس لهم والاستماع إليهم في وجوه القول المختلفة .

يقول العماد الأصفهاني : (" لا يجري في مجلس صلاح الدين ومأنسه إلا ما هو من الحكم والكلم الفائق الرائق ، يحب الشعر الجيد ، ويعجب بالجيد منه ، ويثني عليه " (2)). فمن بين ما ذكر عن صلاح الدين أنه كان يميل إلى الفضائل، ويستحسن الأشعار الجيدة ، ويردها في مجالسه الخاصة والعامة (3).

وقد روي أن العماد الأصفهاني عرض على صلاح الدين يوماً بضعة أبيات في وصف المشمش، ومنها قوله :

بدت بين أوراق الغصون كأنها كرات نضار في لجين مطرق

فقال صلاح الدين: تشبيه الورق باللجين غير موفق، لأن الورق نفسه أخضر، فقال العماد: كرات نضار بالزمرد محقق، فقال صلاح الدين: لا بأس (4).

فكان صلاح الدين ذا نزعة أدبية، وكان يوجد حوله جو علمي أدبي، ينشط فيه العلماء والشعراء والكتاب والوعاظ والفقهاء.

(1) مرآة الزمان : 473/1

(2) خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الشام) : 78

(3) النجوم الزاهرة : 56/6 - 57

(4) الروضتين في أخبار الدولتين : 210/ 2

■ رابعا: المدارس في العصر الأيوبي :

كانت رغبة الأيوبيين الجامعة في حب العلم، سببا مباشرا في تأسيس المدارس، لما لها من أهمية ، تكمن وراء المعارف التي تدرسها هذه المدارس.

فقد بنى صلاح الدين المدارس والمراكز العلمية، ومن هذه المدارس المدرسة الصلاحية، والمدرسة الناصرية، والقمحية، والسيفية، وعمل على تقسيم المعلمين إلى طبقات، وحدد لهم وظائفهم فيها، وهذه الطبقات هي: طبقة الصدر⁽¹⁾، ثم المدرسين، ثم المعيدين.

وجاء في وصف المقرئ للمدرسة التي بناها صلاح الدين بجوار ضريح الإمام الشافعي : ... وجعل فيها معيدين، وعدة من الطلبة، وولي تدريسها جماعة من أكابر الأعيان، ثم خلت من مدرس ثلاثين سنة، واكتفى فيها بالمعيدين، وهم عشرة أنفس⁽²⁾.

ولذلك أصبحت مصر والشام في عهده موثلا للعلماء والأدباء والفقهاء، الذين وفدوا إلى دولة صلاح الدين من المشرق والمغرب والأندلس لما وجدوا فيها من التقدير والتشجيع والإكرام. ومن أشهر الذين قدموا إلى مصر والشام في عهده: العماد الأصفهاني، وابن شداد والهروي⁽³⁾، والبغدادى⁽⁴⁾ وغيرهم الكثير.

ولم يقتصر بناء المدارس فقط على صلاح الدين، فقد أهتم أبناؤه والأمراء والأغنياء في تشييد المدارس وبنائها.

(1) أي تصدر القراء مثل إقراء مذهب مالك أو الشافعي، وتأديبه على أحد هذين المذاهبين.

(2) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقرئية) : 2 / 366

(3) علي بن أبي بكر الهروي (611هـ)، ولد بالموصل، وطاف البلاد، وأكثر من الزيارات، تقدم عند الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب. انظر: وفيات الأعيان 265/5.

(4) عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي (629هـ) من فلاسفة الإسلام، وأحد العلماء المكثرين من التصنيف في الحكمة وعلم النفس والتاريخ والطب. انظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء: 685.

ومن هذه المدارس : المدرسة الكاملية والتي أنشأها الملك الكامل محمد بن الملك العادل سنة 621هـ ، وهي ثاني دار عملت للحديث ⁽¹⁾، والمدرسة الصالحية التي أنشأها الملك الصالح

نجم الدين أيوب ، وامتدحها الشعراء أمثال السراج الوراق .⁽²⁾

مليك له في العلم حب وأهله فله حب ليس فيه ملام
يشيدها للعلم مدرسة غدا عراق أهلها إذ ينسبون وشام

ولم يقتصر بناء المدارس على الملوك بل تعداه إلى الأمراء العلماء والأدباء، ويذكر أحمد شلبي قائلاً : " ويمتاز هذا العهد أي العهد الأيوبي ، بأن الأمراء والأميرات والتجار وغيرهم من الأهالي حتى الخدم ، أسهموا في إنشاء المدارس ، ورعاية العلم " ⁽³⁾.

فقد ساهمت أختا صلاح الدين في تشييد المدارس، فبنت أخته ست الشام زمرد خاتون مدرستين للشافعية بدمشق ⁽⁴⁾، وبنت أخته الثانية ربيعة خاتون مدرسة الصاحبة بدمشق للحنابلة، ودفنت في فنائها ⁽⁵⁾، وأنشأ عبد الوهاب بن عبد الواحد بن محمد الأنصاري الفقيه الواعظ المتوفى سنة (628هـ) المدرسة الشرفية ، وأنشأ المدرسة الزجاجية في حلب بدر الدولة سليمان بن أرتق سنة (515هـ) .

⁽¹⁾ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة : 2 : 262

⁽²⁾ المصدر نفسه : 263

⁽³⁾ التربية الإسلامية نظمها - فلسفتها وتاريخها : 117

⁽⁴⁾ ذيل الروضتين : 119

⁽⁵⁾ المختصر في أخبار البشر : 174/3

■ خامسا: أثر الحروب الصليبية في نمو الأدب في العصر الأيوبي وتطوره:

كان لها الأثر الأعظم في إنعاش الحركة الأدبية في ذلك العصر ، فيمكن القول بأن هذه الحروب كانت النفير العام الذي دوى فأيقظ الشرق من رقدته ، ونبهه من غفلته ، ووحده بعد تفرقه، وجمعه بعد شتات، وأعادته إلى الجد والصرامة ، وجددت فيه القوة ، فأذكت حواس الشعراء والكتاب ، وألهبت مشاعرهم ، وأججت انفعالاتهم ، وأمدتهم بالمعين الصادق من المعاني والأفكار ، فأصبح الشاعر أو الكاتب لا يمدح أو يكتب استجابة لدافع خارج شعوره ، أو تحقيقا لرغبة مفروضة عليه ، وإنما يستمد من نفسه الوحي والإلهام ، ويجد في قراراتها الحافز والدافع .

واتخذ الشعراء والكتاب من الحروب الصليبية موضوعا لهم، وتأثرت أساليبهم بها، من وحشيتها وأطماعها، كما اتخذوا مما ابتلى به الشرق من محن ، وما واجهه من خطوب صورا وأخيلة (1).

لقد غلب الشعر الحماسي والفن النثري بثنتى ألوانه ، على شعراء وأدباء هذا العصر، حتى أصبح طابعا عاما طغى على روحه ، فيكاد لا يخلوا ديوان شاعر من شعراء هذه الفترة ، أو كاتب من كتابها ، من ذلك الشعر والنثر الحماسي الذي يعكس صدى البطولات الرائعة في مقاومة الصليبيين ، وتلك الانتصارات التي أحرزها عماد الدين زنكي، ومن بعده نور الدين ، ومن بعده صلاح الدين ، بل لا نغالي إذا قلنا إن هذه القصائد وأمثالها هي التي غلبت على دواوين الشعراء .

(1) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين: 87

لم تشغل الحروب الصليبية الخلفاء والوزراء عن الشعراء والأدباء، فقربوهم إلى مجالسهم واستمعوا إلى قصائدهم ومؤلفاتهم ، التي ألهمت مشاعرهم ، وأذكت حماسهم وعواطفهم، فتمسكوا بالنصر ونعموا بلذة الجهاد ونشوة المدح.

وكان الخلفاء والقادة بعد أن تنتهي المعارك يعقدون ندواتٍ ، يعرض فيها ما ألف من شعر ونثر

لكي يتدارسوه وينقدوه ، حتى إن بعض الملوك كان يجيد قرض الشعر وإنشاده ، ومنهم : الملك الأفضل بن صلاح الدين ، وتاج الملوك أخو صلاح الدين ، والملك الكامل ابن الملك العادل ، وأخوه الملك المعظم عيسى ، وغيرهم الكثير .

وقد كان الحكام يطربون للأدب، ويقربون الأدباء، وكذلك الشعراء، ويستوزرون الكتاب. وقد اشتهر صلاح الدين ونور الدين محمود بميلهما للأدب وتقريبهما للأدباء والشعراء ، وتكريمهما الأدباء بالعطاء الجزيل .⁽¹⁾ حتى إن صلاح الدين كان كثيراً ما يستدعي بعض مقربيه، ويطلب إليه أن يقرأ في ديوان أحد الشعراء، وكان كثيراً ما يتردد الشعر في مجالسه ، وكان يعجب ببعض الأبيات فيكررها، ومن ذلك قول ابن المنجم:

وما خضَّبَ الناسَ البياضَ لِقُبْحِهِ وأقبحَ منه حينَ يظهرُ ناصِلِهِ

ولكنه ماتَ الشبابَ فسودت على الرسمِ من حزنٍ عليهِ منازلِهِ
فكان إذا قال: (ولكنّه مات الشباب) يمسك بلحيته وينظر إليها، ويقول: أي والله مات الشباب.

(1) الروضتين في أخبار الدولتين : 2 / 210

وشاعت بين الأدباء في ندواتهم واجتماعاتهم روح النقد ، فكان كثير من الشعراء ينفدون بعضهم بعضاً⁽¹⁾.

وقد كان للحروب الصليبية أثر كبير في الأدب ، حيث أدت فيه حماسة الشعراء ، وألهبت مشاعرهم ، وأمدتهم بالمعين الصادق من المعاني والأفكار . وغلب الشعر الحماسي على شعراء هذا العصر، حتى أصبح طابعاً عاماً ، غلب على روح الشعر ، فلا يكاد يخلو ديوان شاعر في هذه الفترة إلا وفيه قصائد من قصائد البطولات الرائعة في مقاومة الصليبيين ، ولم يكتفوا بذلك ، بل وصفوا النكبات التي مُني بها المسلمون ، وبخاصة الجرائم الوحشية التي اقترفها الصليبيون في القدس .

وفي الحقيقة .. إن الأدب في هذا العصر أغلبه تلون بلون الحياة الحربية، وما ينجم عنها من نصرٍ أو هزيمةٍ ، وما تستدعيه من تهيج للخواطر ، وإثارة للمشاعر وتحميس للمحاربين وقد كان لهذا أثر واضح في نهضة الشعر والأدب ونماتهما⁽²⁾ .

وبعد ، فهذه أهم ملامح البيئة السياسية والأدبية والعلمية التي عاش في كنفها بهاء الدين بن شداد وأسامة بن منقذ ، والقاضي الفاضل ، وعماد الدين الأصفهاني ، وعمارة اليمني ، وغيرهم ، فأثرت في أدبهم ، وتأثروا بها في نثرهم وكتاباتهم التي هي محور الدراسة في هذا البحث .

(1) ابن سناء الملك حياته وشعره :19

(2) المصدر السابق :19-22

الفصل الثاني

* السيرة لغة .

* السيرة اصطلاحاً .

* السيرة الذاتية .

* السيرة الغيرية .

* تطور السيرة في الأدب العربي حتى العصر الأيوبي .

يعد فن السيرة من أعلى الفنون شأنًا ، وتعبيرا عن طبيعة العصر الذي أنشئت فيه فالتراث النثري العربي زاخر بالعديد من تلك السير ، التي تتسم بما هو ذاتي الطابع عامي الاهتمام ، بل مزيجا بينهما ، فتكشف تلك السير العربية عموما عن الملامح الثقافية التي قد نسعى للبحث عنها ، ولا نعثر عليها بسهولة بين سطور الكتابات النثرية الأخرى . وقد شاع استعمالها من حيث تناولها حياة فرد له أهميته باعتباره موجها للأحداث في عصره أو جماعة أخذت مكانها المرموق في تاريخ شعب أو أحداث إنسانية ، وهي تمثل الأدب ؛ لأنها تحمل مضامينه وانطباعاته ، وتتلون بالثقافة العامة التي عاشها وتأثر بها ، وبالوضع الاجتماعي والنفسي والديني ، وتتحدد من خلال الموقف الثابت الذي يمثله كاتبها ، أو صاحبها من الحياة .

فهي تشكل مجموعة من الأحداث التي جرت في الماضي ، ويعاد سردها لتكون عبرة وعظة للأجيال المتعاقبة .⁽¹⁾

إن هذا اللون من الدراسة يصل أدبنا بتاريخ الحضارة العربية ، وتيار الفكر العربي، والنفسية العربية ، لأنها صورة للتجربة الصادقة الحية التي أخذنا نتلمس مظاهرها المختلفة في أدبنا عامة .⁽²⁾

وقد وردت كلمة (السيرة) في المعاجم العربية بدلالات متعددة :

• السيرة لغة :

اتخذت (السيرة) معاني لغوية عديدة ، نقلتها لنا المعاجم، ابتعد بعضها عن المعنى الدلالي لمصطلح السيرة ، واقترب بعضها الآخر منه ، بل عدّ أصلا لغويا له :

(1) السيرة الفنية في الأدب العربي حتى أوائل الثمانينات :9

(2) فن السيرة : 15

فقد جاء في المعاجم اللغوية القديمة :

السَّيرُ : الذهاب ، سار يسير سيرا وتسيارا ومسيرة وسيرورة ، ويقال : سار القوم : يسرون

سيرا ومسيرا إذا امتد بهم السير في جهة توجها لها .

والتسيار : من تفعال من السير ، وسايره ، أي جراه فتسايرا وبينهما مسيرة يوم .

وسيره من بلده : أخرجه وأجله ، وسيّرت الجل عن ظهر الدابة : نزعته عنه .

والسيرة : الهيئة ، قال تعالى : " سنعيدها سيرتها الأولى " طه 21 .

وسير سيرة : حدث أحاديث الأوائل ، وقد سير فلان أمثالا سائرة بين الناس .⁽¹⁾

والسيرة : الذهاب كالمسير ، والتسيار ، والمسيرة ، والسيرورة . والسيرة : الضرب من

السَّير ، والسيرة بالكسر : السنة والطريقة والهيئة .⁽²⁾

والسيرة : الطريقة ، يقال : سار بهم سيرة حسنة ، والتسيار بالفتح : تفعال من السير وسايره

أي جراه ، فتسايرا ، وبينهما مسيرة يوم ، وسيره من بلده : أخرجه وأجله

والسيارة : القافلة ، والسير : الذي يقَدّ من الجلد ، وجمعه : سيور ، وسائر الناس جميعهم .

والسيرة : هي الهيئة أو الحال التي يكون عليها الإنسان .

وسار الشيء : لغة في سائره . والسيرة : حياة شخص ترجم لنفسه ، أو تُرجم له .⁽³⁾

والسيرة : هي الطريقة ، أو الهيئة ، ويقول : (سيرة الرجل صحيفة أعماله ، وكيفية سلوكه

بين الناس) ويقال : هو حسن السيرة : أي حسن السلوك بين الناس .⁽⁴⁾

⁽¹⁾ لسان العرب : مادة سير .

⁽²⁾ القاموس المحيط : مادة سير .

⁽³⁾ مختار الصحاح : مادة سير .

⁽⁴⁾ المنجد في اللغة والآداب والعلوم : مادة سير .

والسيرة : هي ترجمة حياة إنسان ، أو تاريخ حياته .⁽¹⁾

والسيرة : السنة والطريقة ، والحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره ، والسيرة النبوية وكتب

السيرة مأخوذة من السيرة بمعنى الطريقة .يقال : قرأت سيرة فلان ، أي تاريخ حياته .⁽²⁾

وكما لاحظنا من خلال التعريفات اللغوية للسيرة ، لا يمكن تجاهل الاقتراب بين معنى السيرة لغويا ، وبين المفهوم العام الذي تحمله الكلمة .

فجاء أن السيرة بمعنى الهيئة ، أو الحال التي يكون عليها الإنسان ، وهي أصل لغوي للسيرة، إذ إنها تتناول حالة الإنسان في مراحل مختلفة من سني عمره ، ومن أطوار تكوين شخصيته. وجاء أن السيرة بمعنى حديث الأوائل : وهذا هو المعنى المباشر والأكثر وضوحا ، وتعبيرا عن مفهوم السيرة . لأن السيرة في الأصل تتناول حياة من أنهوا مشوار الحياة ، وقضوا نحبهم ، ومهما كان الفاصل الزمني بين الكاتب والبطل ، فالبطل بالنسبة إليه هو تاريخ .

ولكن من الملاحظ ، أن المعاجم القديمة لم تربط بين المعاني اللغوية والاصطلاحية للسيرة . أي أنها لم ترصد هذا التطور الدلالي لمادة (سير) وفق مفهوم السيرة ، مع أن السيرة ظهرت فنا أدبيا متميزا في وقت مبكر ، منذ القرن الثاني الهجري ، كما سيمر معنا في تطور السيرة في الأدب العربي وقد تداركت المعاجم الحديثة هذا الأمر ، فنجد الرابط واضحا بين المعنى اللغوي والمدلول الاصطلاحي لـ (سير) ، وفق نظرة كل معجم إلى الأصل اللغوي للسيرة ، وقد ذكرنا من هذه المعاجم ،المنجد في اللغة ، والمعجم الوسيط ، وغيرها من المعاجم الحديثة التي لم يتسع المجال لذكرها .

(1) المنجد في اللغة العربية المعاصرة : مادة سير .

(2) المعجم الوسيط : مادة سير .

• السيرة اصطلاحاً :

تعددت تعريفات السيرة ، ولم يتفق على تعريف واحد يوضع لتعريف السيرة ، بل أصبح كل كاتب في هذا الموضوع يضع تعريفاً خاصاً به، وفقاً لفهمه لطبيعة السيرة ، ويعود هذا لمرونة هذا الجنس الأدبي ، و ضعف الحدود الفاصلة بينه وبين الأجناس الأدبية الأخرى.

ولقد قطعت كلمة (السير) شوطاً من حياتها في التراث العربي ، فهي جزء من مدونة تاريخ العالم ، تعنى بتتبع حياة الأشخاص من خلال الأحداث السياسية ، والاجتماعية ، التي كانت تحيط بهم ، ومدى تشابكهم معاً ، وتأثرهم فيها ، وتوجيههم إياها .⁽¹⁾

فجاءت السيرة بتعريفها العام بأنها بحث يستعرض فيه الكاتب حياته ، أو حياة أحد المشاهير، مبرزاً من خلاله المنجزات التي تحققت في مسيرة حياته ، أو حياة المتحدث عنه.

أما تعريفها الأدبي : فهي نوع من الأدب ، يجمع بين التحري التاريخي ، والإمتاع القصصي ، ويراد به دراسة حياة فرد من الأفراد ، ورسم صورة دقيقة لشخصيته .⁽²⁾

وعرفها الدكتور: ماهر فهمي : بأنها إعادة بناء حياة إنسانية ، أو بمعنى آخر ، هي أصلاً عملية تركيبية ، وقدرة كاتب السيرة على التركيب ، مثل قدرة الأثري على تركيب هيكل قديم من بقايا المبعثرة .⁽³⁾

نجد أنه في هذا التعريف قد نظر إلى السيرة نظرة شمولية عميقة ، توضّح طبيعة السيرة وأصلها ، الذي يعيد حياة اندثرت في الماضي ، وطوتها صفحات التاريخ ، نابضة معاشة من جديد .

(1) أشكال السيرة العربية وتأثيرها في الغرب : 102 .

(2) الفنون الأدبية وأعلامها : 547

(3) السيرة ، تاريخ وفن : 74-75

وعرفها الدكتور: إحسان عباس في أثناء حديثه عن نشأتها ، فقال : تعرض للفرد في نطاق المجتمع ، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة ، أو منعكسة فيها ، أو متأثرة بها ، فإن السيرة في هذا الوضع تحقق غاية تاريخية .(1)

وقال أيضا : هي الرغبة في تأريخ حياة فرد من الأفراد أو جانب كبير من حياته - تحقيقا لنظرة خاصة ، أو فلسفة محدودة .(2)

فالسيرة إذا نابعة من التاريخ ، يجمع بينهما الواقع والحقيقة ، لكن السيرة أقرب إلى نفوس البشر ، فهي تسجل الدقائق الجزئية للانفعالات البشرية ، والعواطف الرقيقة ، بينما التاريخ يصور وقائع وحقائق ، ليس للمشاعر الإنسانية دور فيها ، ولا تخلف وراءها أي أثر أو انفعال .(3)

ويؤكد الدكتور : إحسان عباس أنه : " كلما كانت السيرة تجتري بالفرد ، وتفصله عن مجتمعه ، وتجعله الحقيقة الواحدة الكبرى ، وتتنظر إلى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلة ، فإن صلتها بالتاريخ تكون واهية ضعيفة .(4) وهذا يقتضي كاتب السيرة أن يدير الأحداث حول الشخص المترجم ، ولا يسمح لحياة الأشخاص الآخرين بالتحكم في مجريات الأحداث للسيرة ولا يعرض من حياتهم إلا المقدار الذي يوضح حياة بطل السيرة نفسه ... ، ولا بد له من أن يبني ما يكتبه على أساس متين من الصدق التاريخي ، فإن ضعف عنصر الصدق في السيرة لم تعد تسمى سيرة ، لأن الخيال قد يخرجها مخرجا جديدا ، ويجعلها قصة منمقة ممتعة .(5)

(1) فن السيرة : 11

(2) المصدر السابق : 73

(3) فن السيرة بين الذاتية والغيرية في ضوء النقد الحديث : 67

(4) فن السيرة : 11

(5) المصدر السابق : 74

وعرض لنا أيضا الدكتور: إحسان عباس خلاصة قوله في تعريف السيرة الفنية : بأنّ السيرة فن لا بمقدار صلتها بالخيال ، وإنما لأنها تقوم على خطة أو رسم أو بناء ، وعلى ذلك فهي ليست من الأدب المستمد من الخيال ، بل هي أدب تفسيري ، وهذا النوع من الأدب الذي يخلق خلقا من حيث إن صاحبه معنيّ بغاية محدودة تهديه في اختياره وترتيبه للحقائق ، كالروائي والقصص أيضا ، يحاول أن يكشف عن الصراع بين بطل سيرته ، والطبيعة وصراعه مع الناس الآخرين ، ومع نفسه وهو يحاول أن ينقل إلى القراء حقيقة ذات قبول عام ، ولكنه لا يستطيع أن يحكم خياله في أجزائها ، وبدلا من أن يقف موقف الخلاق تراه يقف موقف المستكشف المفسر لأشياء وأشخاص وجدوا الحقيقة .(1)

أراد الدكتور إحسان عباس أن يبين أن السيرة ابتعدت عن الأصل التاريخي ، حين أصبحت غايتها تعليمية ، أو أخلاقية ، أو ابتعدت عن الصدق ودخلها الخيال ، وأراد أن يقيسها بمقياس جديد ، وهذا المقياس وضعه الدكتور أنيس المقدسي عندما عرفها : بأنها نوع من الأدب ، يجمع بين التحري التاريخي ، والإمتاع القصصي ، ويراد به دراسة حياة فرد من الأفراد ، ورسم صورة دقيقة لشخصيته الكاملة .(2)

وقد عرفها تعريفا فنيا : بأنها تفسير للحياة الشخصية في جزئها التاريخي ، فهي ليست مجرد أخبار تاريخية ، ولا هي مجرد تحليلات نفسية ، أو اجتماعية ، بل هي كل ذلك مسبوكا في قالب فني ذي طلاوة ورواء ، بكلمة واحدة ، قصة ذات أثر .(3)

وكانه يريد أن يقول في أنه يعود إلى الحياة ليمثل دوره فيها بكل صدق وأمانة ، فكاتب السيرة هو الذي يعطينا الحياة نفسها ، إذ يجب أن تكتب السيرة بأسلوب قصصي ، لأنه أبلغ وأشد

(1) فن السيرة : 90

(2) الفنون الأدبية وأعلامها : 547

(3) المصدر السابق : 551

تأثيراً في نفس القارئ ، فالأسلوب القصصي أكثر إثارة للقراءة ، حيث جيش كافة الانفعالات والعواطف التي تتوزع في أعماق البشر .

وعرفها الأشتري بأنها : " ما يترجم الأدباء لحياتهم وحياتهم أعلامهم ، من رجال الأدب والفكر والسياسة ، إذ يجمعون الوثائق التي تتصل بها ، فيصنفونها ، ويدرسونها ، دراسة دقيقة يتمثلون فيها الحياة قائمة في ظروفها من الزمان والمكان ، ويرصدون نموها ومراحل تطورها ، ثم يكتبون قصتها من جديد .⁽¹⁾

وعرفت الدكتوراه منها العطار: بأنها قصة واقعية جرت حوادثها في الماضي ، ولكنها تسترجع من الذاكرة ليعاد تمثيلها على مسرح الحياة ، فكأن كاتبها يعيش تلك الحياة مرة أخرى فيتقمص شخصية البطل ، ويشعر بشعوره ، ويحس بأحاسيسه ، وربما رأى بعينه أحداث حياته من خلال الوثائق ، أو من خلال قصص استمد واقعها من أهله وأصدقائه ومعاصريه يجسم تلك الحياة ، وينفخ فيها الروح ، لتمثل بإتقان ، مراعية في ذلك أطر الزمان والمكان وتطور البطل ونموه .⁽²⁾

وجاء تعريفها في الموسوعة العالمية : بأنها عرض واقعي لتاريخ حياة فرد من الأفراد، أعدت لتوضيح شخصية المترجم ومزاجه ، وذاتيته المميزة .⁽³⁾

وقد رأى الدكتور النجار في تعريفه للسيرة : بأن السيرة قصة تاريخية ، لا تشذ أبدا عما يفيد التاريخ من حقائق تعتمد على الوثائق والمدونات والأسانيد القاطعة البعيدة عن الكذب والافتراء، إلا أنها قصة تتعلق بحياة إنسان ترك من الأثر في الحياة ما جذب إليه التاريخ .⁽⁴⁾

⁽¹⁾ فنون النثر المهجري : 180

⁽²⁾ السيرة الفنية في الأدب العربي : 22

⁽³⁾ الموسوعة العالمية: 3 : 22

⁽⁴⁾ التاريخ والسير : 61

الأمر نفسه نجده عند الدكتور شوقي المعاملي الذي عرف السيرة فقال : السيرة قصة إنسانية ، وهي تاريخ يمثل أروع فنون الكتابة التاريخية ، وهي امتداد لحياة عظيم في زمان ومكان معينين ، ويمتد الزمان إلى ما وراء جيلها ، ثم إنها تمثل مواقف تاريخية ، لها حوافرها ومراميتها .⁽¹⁾

نجد أن التعريف السابق ، أضفى على السيرة بعدها الإنساني ، بقوله قصة إنسانية ، وعبر عن مادتها بقوله : تاريخ حق ، وأكد أهميتها بقوله : امتداد لحياة عظيم .

• أقسام السير :

اتفق الباحثون على أن السير نوعان:

أ- السير العامة .

ب- السير الخاصة . وهي نوعان (* سيرة غيرية) و (* سيرة ذاتية) .

أولاً : السير العامة :

ويقصد بها كتب التراجم والطبقات والأخبار ، كطبقات ابن سعد ، والأغاني ، ومعجم ياقوت وابن خلكان ، وغيرهم . وفي هذا النوع من التراجم ، يجتمع الفقيه ، والمحدث ، والأديب والشاعر بين دفتي كتاب واحد ، على الرغم من الفروق الكبيرة بين مهنتهم ورسالتهم في الحياة .

كما يجتمع رجل من رجال القرن الأول ، بجانب رجل من القرن الثاني ، أو الرابع ، أو الخامس ، أو مابعدهما ... بغض النظر عن اختلاف ألوانهم .⁽²⁾

⁽¹⁾ السيرة الذاتية في التراث : 15

⁽²⁾ التراجم والسير : 39

ثانيا: السير الخاصة:

وتنقسم إلى قسمين : إما أن يكتب الكاتب قصة غيره ، فتسمى (غيرية) ، مثل سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وابن العديم ، والبديعي ، وابن هشام ، وعروة بن الزبير ، وبهاء الدين بن شداد وغيرها الكثير ، وإما أن يكتب الكاتب قصة حياته ، وهنا تسمى (ذاتية) مثل سيرة الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال ، والنكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية لعمارة اليميني وغيرها الكثير ، وسيرة أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار .

وسنتناول في هذا الفصل مفهوم السيرة الغيرية والسيرة الذاتية ، وتطورهما في الأدب العربي حتى العصر الأيوبي .

• أولا: السيرة الغيرية:

السيرة الغيرية أسبق زمنا من السيرة الذاتية ، لأنها ظهرت مع ظهور التاريخ والأدب ، فمنذ ظهور الحضارات ظهر الكثير من الرجال الذين يعيشون في بلاط الحكام والسلاطين ، فراحوا يدوتون ما كان يحدث في زمانهم من تطور ونماء ، فأرخوا للسلاطين والملوك ، وللحروب والمحاربين ، ورجالات الدول ، وإن معظم هذه الأعمال تنطوي تحت مفهوم السيرة الغيرية .

وقد تعدد مفهوم السيرة الغيرية ، وذكر في أكثر من موضع ، ومنه أن السيرة الغيرية : هي بحث عن الحقيقة في حياة إنسان فذ ، وكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته ، من ظروف حياته التي عاشها ، والأحداث التي واجهها في محيطه ، والأثر الذي خلفه في جيله.⁽¹⁾

وعرفها الدكتور عبد الدايم بأنها : بحث يعرض فيه الكاتب حياة أحد المشاهير ، فيسرد في صفحاته حياة صاحب السيرة .⁽²⁾

(1) التاريخ والسير :14

(2) الترجمة الذاتية في الأدب العربي : 31

فالسيرة الغيرية قصة تتعلق بحياة إنسان فرد، ترك من الأثر في الحياة ما جذب إليه التاريخ وأوقف على بابه ، وهي أحفل من التاريخ العام بالعواطف الزاخرة الجياشة ، والأحاسيس النابضة ، لأنها تعرض من سيرة الفرد لجوانب حياته المختلفة ،حتى تتجلى مقومات شخصيته، وتبرز معالم حياته ، لتفصح عن سر نبوغه وتفردده ، إذ لا تحفل السيرة الغيرية ، إلا بكل نابغة فريد ، فهي إذا قصة إنسان متميز، بكل ما ينبض به قلب هذا الإنسان من أحاسيس وعواطف ، وما اعتور عقله من فلتات الذكاء الفذ ، والخيال الجامح ، وأبرز ما فيها هو العمل الكبير الذي قام به صاحبها ، والأثر الفعال الذي تركه بعمله في الحياة الإنسانية ، وبقدر مايعظم هذا العمل ، ويعظم تأثيره ، بقدر ما يحفل فيه التاريخ ، فيقص خبره ، ويروي سيرة صاحبه .(1)

إذا فالسيرة الغيرية هي حياة إنسان متكاملة للمترجم له ، وتمتد إلى ما بعد اللحد ، فينظر الكاتب فيما تخلفه شخصية المترجم له من آثار في جيله ، وفي الأجيال اللاحقة ، وليس هناك حاجة لأن نوجب نوعا من البعد بينها وبين المترجم ، إذ المترجم يعلم أخبارا عن المترجم له، ويرسلها إلى المتلقي ، وعلى كاتب السيرة الغيرية أن يتحقق فيما ينقله ، أو يحكيه عن غيره، وأن يكون دقيقا في نسبة الأقوال وتوثيقها ، فيميز بين ما رآه ، وما سمعه ، أو وقف على تفصيلاته بنفسه ، وبين ما تنهى إليه خبره عن غير معاينة أو سماع مباشر ، حتى لا يؤخذ بجريرة غيره فيرمى بالكذب ، وهو منه بريء ، لأنه مأمور ألا يعرض نفسه للشبهات . ومن هنا يتضح لنا أن السيرة الغيرية موضوعية ، يعتمد فيها كاتبها على الوثائق والمشاهدات ، والمذكرات ، وغيرها من الوقائع والحقائق، التي ينبغي أن ينظر إليها في

(1) انظر : التاريخ والسير 62 ، والسيرة الذاتية : 5

موضوعية ، ويعمل على تنقيتها ، والحكم عليها ، لينفذ فيها إلى بناء سيرة ، وتشكيل الشخصية التي يكتب عنها .

وليس المقصود بالموضوعية ، الموضوعية العلمية المترتبة ، وإنما التشكيل الفني الذي يصبغ هذه الموضوعية بذاتية الفن ، وتأتي هذه الصبغة من حيث الاختيار والتنسيق والتلوين وتوزيع الأضواء والظلال .⁽¹⁾

و لا يجوز أن نحكم على السيرة الغيرية من حيث الموضوعية فقط ، بل يجب أن نصل إلى البناء الفني المحكم ، الذي يجعلها تسلك مسلكا فنيا أدبيا ، فالسيرة الغيرية تتصف بالبناء الفني المحكم من جانبين :

الجانب الأول : في عرض الأحداث والمواقف كما هي في الواقع والتاريخ ، وذلك من خلال عدة قضايا ، منها التطابق بين السرد والشخصية الرئيسية ، وفي كيفية تحليل الشخصية ورسمها من أجل كشف أعماقها ، فكاتب السيرة الغيرية ليس أمامه إلا أحداث في أكثر الأحيان ، ومنها ما يتعمق إلى الداخل ، أو يقدم الشخصية من الداخل إلى الخارج .⁽²⁾

فكاتب السيرة يعتمد على الوثائق والمذكرات والرسائل والإنتاج الأدبي وغيرها ، في تفاصيل حياة المترجم عنه من أجل الوصول إلى وصف كامل عن حياته ، وما مرّ به من أحداث وشواهد كان قد شهدها .

والجانب الثاني : أن يكون الترابط بين جملها وفقراتها قويا منسقا ، فلا يحدث فيها انقطاع أو فجوات ، فيجب أن تكون الأحداث مسلسلة تسلسلا منطقيا ، والعبارات والفقرات منسقة ومترابطة ومحكمة ، فالسيرة الغيرية قصة حياة بعث من جديد ، فلا بد لكاتبها أن يغوص

(1) انظر : السيرة الذاتية : 55- 80 .

(2) السيرة تاريخ وفن : 254

وراء الأحداث ، والمواقف ، يظهر فيها براعته في صياغة تلك الأحداث ، والوقائع في أسلوب فني جميل ، فالوقوف على ما وراء المواقف والأحداث من أهداف ودروس ، أمر في غاية الأهمية يجب إظهاره في السيرة الغيرية ، حتى تخرج عن نطاق التاريخ ، فلا يصح الاهتمام بالظاهر فحسب ، فهناك أمور مبطنة ، يجب إبرازها ، فعلى الكاتب أن يقرأها بين السطور وأن يكون لديه قدرة على التحليل النفسي .⁽¹⁾

" فالسيرة الفنية الحديثة هي التي تكتفي بالحوادث البارزة ، والمواقف الكبيرة المؤثرة في حياة المترجم له بقوة ، أو التي لها شأن في تاريخه الطويل ، مع الإشارة العابرة السريعة إلى الحوادث الصغيرة التي لا شأن لها ، أو التي لم تؤثر في حياته ، وقد يكون الاكتفاء بالحوادث الصغيرة المؤثرة في حياة المترجم له بجانب الأحداث الكبيرة ، أو المواقف البارزة وهذا من أفضل الشروط التي يجب توافرها في السيرة الفنية غيرية أو ذاتية كانت ".⁽²⁾

ونستطيع أن نقول إن السيرة الغيرية ، كان لها أثر بارز في تطور فن السيرة ونموه في الأدب العربي ، فقد ساعدت فن السير الذي تطور ونشأ حتى أصبح ترجمة لحياة شخص كاملة بشكل متكامل ومفصل ، وامتازت بالأسلوب الأدبي الرفيع ، والمنهج السردى الواضح ضمن إطار معين ، وهدف واضح ، من خلال التزامها بالصدق والصراحة .

(1) انظر :فن السيرة بين الذاتية والغيرية في ضوء النقد الحديث : 205 - 211

(2) فن السيرة : 55

• ثانيا : السيرة الذاتية :

إن من أبسط الأمور أن تدفع الإنسان إلى كتابة سيرته الذاتية ، رغبته في الخلود ، وهذه الرغبة تشتد عنده عندما يشعر بالتفرد والتميز، ففي هذه الحالة يقوي إحساسه بأنه إنسان يستحق البقاء، فليس في الناس من يكره التحدث عن نفسه ، حتى الذين يقولون ذلك بألسنتهم إنما يعانون ألما شديدا ، لكف أنفسهم عما تشتت به ، إذا هم قدروا على كفها ، وكثير منهم من يجعل ذلك وسيلة إلى التحدث عن ذاته ، على وجه يوحى بأنه ينزع الكلام عنها انتزاعا وهو كاره له، إذ كان الحديث عن النفس بطريقة شفوية عامة حضا مشاعا بين أبناء الإنسانية، فإن من بعض صورته قسمة تختص بالأديب أو الفنان ، لان الأنا حاضرة لديه مقنعة .⁽¹⁾

فلقد عرف باحثو العرب المعاصرون السيرة الذاتية ، ونظر كل منهم إليها من زاويته الخاصة فعرّفها الدكتور إحسان عباس : "بأنها تجربة ذاتية لفرد من الأفراد ، فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج ، وأصبحت في نفس صاحبها نوعا من القلق الفني ، فإنه لا بدّ أن يكتبها"⁽²⁾ . فليست الترجمة الذاتية حديثا سادجا عن النفس ، ولا هي تزيين للمفاخر والمآثر ، ومن ثم كنا نستسيغها ، ونجد فيها متعة عميقة .⁽³⁾

فالسيرة الذاتية هي الحقيقة والخيال يمتزجان معا ... (وتعدّ) رحلة استكشاف تتردّد فيها أصداء الماضي في الحاضر ، بحثا عن قانون الروح الفردية التي ظهرت في هذا العصر .

(1) انظر : فن السيرة : 98

(2) المصدر السابق : 98

(3) المصدر السابق : 91 - 92

إذا فالفرد ليس مجرد هالة وجود، بل هو قوة واقعة في سبيل التطور ، ولا يمكن فهمها إلا عن طريق حياته .⁽¹⁾

ونجد من خلال تعريف الدكتور إحسان عباس أنه نحا بمفهوم السيرة الذاتية ، ودراستها منحا نقديا أكثر علمية ، وأكثر دقة ، وبدا أثره واضحا ولمدة طويلة في الدراسات التي تلت .

وقد جاء في الموسوعة العالمية ، بأن السيرة الذاتية هي تجارب إنسانية ثرية ، تعبر عن النفس الكبيرة في نضوجها بعد صراع طويل ، وتقلب مرير ، بين الغنى والفقر ، وبين العدالة والظلم ، وبين الشك والإيجاب ، ويكتبها صاحبها بوعي كامل ، بعد أن انقضت فترة

الصراع، ووقف على بر الأمان ، ويستعيد موقفه من الأمواج المتلاطمة .⁽²⁾

أما عبد الغني حسن فيعرفها قائلا : " هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه ، فيسجل حوادثه وأخباره ، ويسرد أعماله وآثاره ، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته ، وما جرى له فيها من أحداث تعظم وتضوّل تبعاً لأهميته "⁽³⁾.

ووجد عبد المحسن بدر بأنها " تحاول تفسير تاريخ حياة مؤلفها في رحلة زمنية محدودة ، وتحفظ بالترتيب الزمني للأحداث كما وقعت لصاحبها ، ولا يقتصر المؤلف على سرد الأحداث ، ولكنه يقف فيها موقف الدارس المحلل ، كما أن الرابطة التي تربط بين أحداثها مجرد رابطة سطحية تتمثل في وقوع الأحداث بعينها في زمن محدد ، وذلك بعكس الرواية التي لا تكتفي فيها الرابطة الخارجية وحدها ، ولكنها تفترض وجود رابطة داخلية بين الأحداث ، وتتمثل في إحساس المؤلف الذي تتطور أحداث الرواية لإبرازه .⁽⁴⁾

⁽¹⁾ فن السيرة : 134- 140

⁽²⁾ الموسوعة العالمية : 2 : 235

⁽³⁾ التراجم والسير : 93

⁽⁴⁾ تطور الرواية العربية : 299

وعرفها شرف بقوله: " بأن السيرة الذاتية تعني حرفيا ترجمة حياة إنسان، كما يراها هو".⁽¹⁾
وأما يحيى عبد الدايم فيقول: " الترجمة الذاتية الفنية هي التي يصوغها صاحبها في صورة مترابطة ، على أساس من الوحدة والاتساق في البناء والروح ، وفي أسلوب أدبي قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافيا كاملا عن تاريخه الشخصي ، على نحو موجز حافل بالتجارب والخبرات المنوعة الخصبة ، وهو الأسلوب الذي يقوم على جمال العرض ، وحسن التقسيم ، وعذوبة العبارة ، وحلاوة النص الأدبي ، وبث الحياة والحركة في تصوير الوقائع والشخصيات بما يمثله من حوار مستعينا بعناصر ضئيلة ، من الخيال لربط أجزاء عمله حتى تبدو ترجمته الذاتية في صورة متماسكة ، محكمة ".⁽²⁾

وأورد تعريفها (لجون) بأنها حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية ، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة⁽³⁾.
بهذا التعريف وضع (لجون) أربع خطوط عريضة للسيرة الذاتية باعتبارها جنسا قائما بذاته وهي : تشكل اللغة (حكي ونثر) والموضوع المطروق (حياة فردية وتاريخ شخصية معينة) وموقع المؤلف (إذ أنه لا بد من التطابق بين السارد والشخصية الرئيسية)، ومنظور الحكي (إذ يجب أن يكون استعاديا) .

فيقول إنها هي التي تحقق الغاية المرجوة التي يؤديها العمل الفني، إذ أنها مراح رحب لكتبتها، يتخفف فيها من ثقل التجارب التي خاض غمارها بثقلها عن داخل نفسه إلى خارجها، وهو بهذا يعرض خبراته على الآخرين بغية مشاركتهم فيها.⁽⁴⁾

(1) أدب السيرة الذاتية : 27

(2) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث : 10

(3) السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ : 22

(4) المصدر السابق : 10- 12

ويقص كاتب السيرة الذاتية حياته ، ليقرب نفسه منا ، ولعل الإنسان بغريزته يحب التحدث عن نفسه ، " والأنا" حاضرة تختص بالأديب والفنان معا ، وهي تختفي وراء قصصه ولوحاته وقد ننكر تحدث الناس ، والتبجح بأعمالهم الخارقة ، ثم نقرأ مثلا سيرا للأدباء والعلماء فنرى الأنا تظهر بين سطورها ، ومن خلال أحرف كلماتهم ! ، إن الإنسان محب لنفسه فالطفل الصغير ، يريد أن يثبت وجوده أمام المقربين منه بأعمال يخلقها ، وهكذا فقد جبل الإنسان على الأنا منذ خلق ، ولكنها كانت تختلف صورها وانطباعاتها (1).

فالسيرة الذاتية عكست بيئة العصر وحضارته الذي تمثله ، وخضعت للروح العام الذي وجه الفكر العربي، شأنها شأن فنون المعرفة الأخرى (2).

وهكذا فإن السيرة الذاتية تتسم بوحدة زمنية هي عمر صاحبها ، وتنقل الحياة الإنسانية بكل ما فيها من قبح وحسن، ومن نقص وكمال ، وضعف وقوة ، وتتيح لنا التعرف على عالم صاحب السيرة وقيمه وثقافته ومشاعره نحو الناس والحياة .

وإن للسيرة الذاتية نكهة خاصة، لأن الكاتب يتحدث فيها عن نفسه، فنحس بأن الكلفة قد رفعت بيننا وبينه كما يقول الدكتور إحسان عباس: "وكاتب السيرة قريب إلى قلوبنا، لأنه إنما كتب تلك السيرة من أجل أن يوجد رابطة ما بيننا وبينه، وأن يحدثنا عن دخائل نفسه وتجارب حياته حديثا يلقي منا آذانا واعية، لأنه يثير فينا رغبة في الكشف عن عالم نجعله، ويوقفنا من صاحبه موقف الأمين على أسراره وخبائاه، وهذا شيء يبعث فينا الرضى". (3)

(1) السيرة الفنية في الأدب العربي :22

(2) الترجمة الذاتية : 36

(3) فن السيرة : 101.

فالهدف و الغاية التي تحقّقها كتابة السيرة الذاتية من صاحبها هي تخفيف العبء عن عاتقه بنقل التجربة الذاتية إلى الآخرين، ودعوتهم إلى المشاركة فيها، فهي توفر فرصة للفنان أن يريح نفسه بالاعتراف، ولإيضاح موقفه من المجتمع، ويعني ذلك أنه يكتب ليستفيد بالتنفيس عن مكنونات قلبه، وإطلاق نفسه من عقالها، وليحصل على المتعة الفنية المستحدثة عن الصدق والقدرة على التأثير، ويكتب ليفيد الناس بتجاربه الذاتية ومشاركته لهم:

- فإذا كان يحس بالاضطهاد من المجتمع، تخفف من هذا الشعور بالحديث عنه.
- وإذا أحس بوقع ذنوبه وأثامه، أراح ضميره بالاعتراف بها، وقمع نفسه بالإعلان عن سيئاتها، ووقف منها موقف المتهم والقاضي معاً.
- وإذا مرّ بصراع نفسي أو روعي أو فكري وخرج منه سالماً رسم صورة لذلك الصراع، وأنهى قصته بالهدوء الذي يعقب العاصفة، والاستبشار الذي يأتي بعد اليأس.
- وإذا فشل وأخفق أو هزم أو اتهم، فهو يرضى ضميره، وهو يظهر الاعتذار والتعليل والتبرير لما حصل . فالكشف عن دخائل نفسه هو الطريق الصحيح ليفدّره الناس من حوله وظهور صدقه.⁽¹⁾

فالسيرة الذاتية إذا فن أدبي يتكفّل فيه الكاتب برواية أحداث حياته، ويجري التركيز فيها على المجال الذي تميّز فيه شخصيته الحيوية، كأن يكون المجال الفني أو الاجتماعي أو السياسي أو العسكري.. إلخ ، كلّما كان ذلك ضرورياً وممكناً، ويسعى في ذلك لانتخاب حلقات معيّنة

(1) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث : 2-16.

مركزة من سيرة هذه الحياة، وحشدها بأسلوبية خاصّة، تضمن له صناعة نص سردي متكامل ذي مضمون مقنع ومثير ومسلّ .

ولقد لاحظنا أن السيرة الغيريّة في الأدب العربي القديم أقدم في الظهور والاستعمال من السيرة الذاتية ، بل إن السيرة الذاتية بداياتها وإرهاصاتها في الأدب العربي القديم ارتبطت بكتب التراجم والسير ، ولم تختلف السيرة الذاتية عن التراجم و السير الغيريّة ، إلا في كون صاحبها يكتبها عن نفسه لا عن غيره ، وجاءت في أغلبها ذبلا على كتب السير والتاريخ، وكما سنلاحظ أن السيرة الغيرية ارتبطت بسيرة النبي ، صلى الله عليه وسلم ومغازيه .

وعند محاولة التفريق بين السيرة الذاتية والغيريّة نجد أن النقاد يركزون على قضية التطابق بين السارد والشخصية الرئيسية والمبدع في السيرة الذاتية ، وعدم التطابق في السيرة الغيريّة ولكن السمة الأساسية والمشاركة بينهما تكمن في المقصد وهو " طموحها الأساسي إلى جعل حياة إنسانية حقيقية موضوع كتاب " (1).

والدافع إلى هذا الطموح - كما يرى الدكتور محمد عبد الغني حسن - يندرج تحت عنوان عام " هو الإعجاب ، الإعجاب بالنفس في السيرة الذاتية ، والإعجاب بالغير في السيرة الغيريّة ، وإن كان هذا الإعجاب لا ينبغي أن يطغى ، فيجعلنا نقف موقف المدافعين عن أنفسنا أو عن غيرنا ، لأنه الأساس الذي تبنى عليه السيرة بنوعها " (2) .

ونهاية الكلام السابق يعود بنا إلى فرق مهم بين السيرة الغيريّة والذاتيّة ، والمتمثّل بدرجة الذاتيّة والموضوعية في كل منهما ، فالذاتيّة هي العنصر الأبرز في السيرة الذاتية ، أما

(1) السيرة الذاتية : 173

(2) السيرة الذاتية تاريخ وفن : 254

السيرة الغيرية فالعنصر الأبرز فيها يقوم على الموضوعية ، وهذا لا يعني أن يتجرد كاتب السيرة الذاتية عن الموضوعية ، بل يجب أن يكون "موضوعيا أيضا في نظرتة لنفسه ، بمعنى أن يتجرد من التحيز لنفسه ، وهو يذكر موقفه من الناس والحوادث ، ولا ينساق مع غرور النفس ، وتعلقها بذاتها ، وحبها لإعلاء شأنها ، وتنقيصها من أقدار الآخرين (1).

ومن الفروق بين السيرة الذاتية والغيرية ، أن كاتب الأولى ينقل نقلا مباشرا ، بينما كاتب الثانية ، يعتمد على الوثائق والمذكرات والرسائل والإنتاج الأدبي وغيرها ، وهذا لا يعني أن كاتب السيرة الذاتية لا يستعين أحيانا ببعض المذكرات والمفكرات والرسائل ، ولكن هذه الاستعانة تأتي لتذكره بالحدث كي ينتزعه من أعماق ذاته (2).

ومن الفروق بين السيرة الذاتية والغيرية قضية الزمن ، فمسار الزمن في السيرة الذاتية ينطلق عكسيا من الحاضر إلى الماضي " وهذا شرط لا بد منه في جنس السيرة الذاتية ، إذ أن كاتبها ، حين يمسك بقلمه في الحاضر ، لا يجد منفذا إلى مصادره التي تقبع في تلافيف ذاكرته إلا بأن يجدف عكس مجرى حياته " (3).

أما كاتب السيرة الغيرية ، فالمنطقي أن ينهج الترتيب العادي للزمن متبعا لجميع المراحل الزمنية لشخصيته حتى موته ، ولعل هذا ما جعل النقاد يقولون بنقص السيرة الذاتية وتكامل السيرة الغيرية (4) .

(1) فن السيرة : 102

(2) انظر : السيرة الذاتية : 176 - 178

(3) السيرة الذاتية : 177 - 178 .

(4) السيرة تاريخ وفن : 254

• تطور فن السيرة في الأدب العربي حتى العصر الأيوبي :

لقد كان للقرآن الكريم دور كبير في تعميق الإحساس التاريخي عند العرب، حيث قصّ عليهم قصص الأمم الخالية، ووصلهم بتلك الأمم، وكان هدف القرآن العبرة وغيرها من أمور العبودية والوحدانية⁽¹⁾.

وتعد سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم البداية الحقيقية الأولى لفن السيرة عند العرب والمسلمين، وجاء الاهتمام بسيرة النبي (ص) وسلم بتأثير من القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم أوجب على المسلمين دراسة سيرة الرسول (ص) وإتباع سيرته .

ويرى إحسان عباس أن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كتبت تحت مؤثرات تتميز بعاملين كبيرين هما:

أولاً: إن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم جزء من السنة ، فهي والحديث مصدران هامين من مصادر التشريع ، ومنهما تستفاد الأحكام ، لذلك لا بد من جلائها في دقة بالغة ، لكي تكون أعماله - إلى جانب أقواله- مشرعا واضحا لرجال الشريعة وأهل الإفتاء والقضاة .

ثانياً: " إن المسلمين كانوا قد ورثوا نظرة الجاهلية إلى التاريخ، وهي نظرة قائمة على الأيام وطبيعة الحرب وشؤون القتال ، ولذلك اهتم كتاب السير قبل كل شيء بمغازي الرسول، وتصوير ذلك الدور الحربي الذي أدى إلى انتصار المسلمين في النهاية " .⁽²⁾

وقد تعدد الذين اهتموا بكتابة سيرة النبي محمد(ص) ، عروة بن الزبير (ت 92هـ)، وأبان بن عثمان (ت 105هـ) ، ووهب بن منبه (ت 110هـ) ، وعاصم بن قتادة (ت 120هـ)، وشرحبيل بن سعد (ت 123هـ) ، وابن شهاب الزهري (ت 124هـ) وعبدالله ابن حزم (ت 135هـ)

(1) فن السيرة: 13

(2) المصدر السابق: 13

وموسى بن عقبه (ت 141) ، غير أن جميع ماكتبه هؤلاء قد باد وتلف مع الزمن ، فلم يصل إلينا منه شيء ، ثم جاء محمد بن إسحاق (ت 152هـ) ليسجل أوثق ما كتب في السيرة النبوية في ذلك العهد ، أما ابن هشام فقد قام بعملية الجمع عن ابن إسحاق (1).

وقد ربط الباحثون السيرة النبوية بسيرة ابن إسحاق وابن هشام ، وعدّوهما البداية الأولى لكتابة السيرة النبوية بشكل مكتمل ومختلف عن الكتابات الأخرى من أصحاب السير وتستطيع أن تدرك قيمة سيرة ابن إسحاق في تاريخ السير عند المسلمين إذا نحن عرفنا أن ما كتب بعده لم يختلف كثيرا في جوهره عما كتبه .

وقد تعد سيرة ابن إسحاق أساسا للمعلومات المقررة عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم وأعماله. (2)

ولقد عدّ الباحثون القرن الثاني الهجري التاريخ الفعلي لظهور فن السيرة ، الذي بدأ بكتابة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبالتالي فقد ارتبطت كتابة السيرة ، أو ظهور فن السيرة بسيرة محمد (ص) ، كما أن أول ما استعمل لفظ السيرة إنما كان في سيرة الرسول الكريم ، وبقيت مرتبطة به حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، حيث كتب ابن الداية سيرة أحمد بن طولون ، وبذلك انتقلت - ولأول مرة - لفظة السيرة، من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى غيره من الرجال. (3)

وفي القرن الرابع ظهر كاتب ومؤرخ اسمه عبدالله البلوى، فلم تعجبه سيرة (ابن طولون) ، فأعاد كتابتها بأسلوبه الذي رآه صالحا لكتابة السيرة. (4)

(1) فقه السيرة : 19

(2) فن السيرة : 18

(3) التراجم والسير : 27

(4) المصدر السابق : 27

وفي القرن الخامس كتب أبو النصر العتبي (ت 427هـ) سيرة السلطان محمود الغزنوي في كتاب سماه (اليميني) نسبة إلى يمين الدولة ، وهو لقب السلطان محمود ، بسط فيه ترجمته وحياته و حياة أبيه ، وكل ماجرى معه من أحداث ، وغلب على كتابه أسلوب السجع .

وقد لقيت هذه السيرة للسلطان الغزنوي من القبول في البلاد الإسلامية ما جعل الأدباء يتسابقون إلى شرحها ، كما صنع الشيخ أحمد الميني الدمشقي المتوفى سنة (1172هـ) في كتابه المسمى " الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي " ، وليس هذا الشرح الوحيد لهذه السيرة ، فقد شرحها جماعة منهم الكرمانى ، والخوارزمي ، وابن محفوظ ، وحميد الدين .

حظي القرن السادس الهجري بطائفة من السير، كتبها المؤرخ المترجم ابن الجوزي لجماعة من عظماء الأمة الإسلامية ، فقد كتب سيرة الخليفة عمر بن الخطاب، أفاض فيها ، وذكر كثيرا من أخباره ، وفضائله، وأوليائه ، وإدارته المملكة الإسلامية ، وتدوينه الدواوين ، وجرى في الأخبار على طريقة الإسناد ، وسيرة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وسيرة الإمام أحمد بن حنبل (1).

وقد اختفت في القرون السابع والثامن والتاسع ظاهرة السير للأموات السالفين ، وحلت محلها سير الأحياء من الملوك وأصحاب السلطان ، ومؤسسي الدول ، كما ظهرت بجانبها سير العلماء المعاصرين .

فكتب ابن شداد (ت632هـ) سيرة السلطان الناصر (صلاح الدين الأيوبي) بكتابه المعروف (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) ، وكتب محمد بن أحمد النسوي (ت679هـ) سيرة السلطان جلال الدين .

(1) انظر : التراجم والسير : 27- 30

والجدير بالذكر أن السيرة جنس أدبي يمر بمراحل وأطوار عديدة ، حتى يصل في مراحل نموه إلى الشكل المتكامل والمميز عن باقي الأجناس الأدبية الأخرى .

أمّا السيرة الذاتية فلا شك في أن صلتها بالأدب العربي صلة قوية، ذلك لأنها تهتمّ بتسجيل الوقائع والأحداث و المواقف في تصوير مختلف البيئات والمآثر، والكشف عن الصور المادية والنفسية وإذا كانت السيرة الذاتية تتبع من صلب الأدب بخلاف التاريخ المتّسم بالطابع العلمي فإن هذا لا يعني أن الحس التاريخي منعدم في كتابة التاريخ الخاص الفردي، بل إنه على العكس حاضر بأبعاده الثلاثة المتمثلة في الماضي، والحاضر، والمستقبل، والظاهر لأول وهلة أن السيرة الذاتية تتخذ موقعا وسطا بين الأدب والتاريخ، وإذا نظرنا أكثر في طبيعة هذا الجنس الأدبي ، فإننا نصل إلى تعبير دقيق عميق من حيث دلالاته ، وهو أن هذا اللون من التعبير تتجاوزه قوتان: سلطة الأدب وقوة التاريخ، لأن الكاتب يصوغ تاريخه الخاص صياغة أدبية فنية ، وبسبب واقع التجاوب بين الأدب و التاريخ تتميز السيرة الذاتية عن باقي جسد التاريخ العام ، مع أن الأصل في التاريخ الإنساني هو مجموع التواريخ الخاصة، سواء الفردية منها أم الجماعية .

ولدينا كنوز ثمينة من السير الذاتية التي يضمّها التراث العربي ، ومتابعة هذه السير يفتح بابا واسعا للاطلاع على بعض كنوز هذا التراث ، وهي وسيلة لتقديم التاريخ الأدبي الحي المصبوغ بالصبغة الأدبية .

فمنها ما ورد في كتاب (تاريخ بغداد) لعلي بن الخطيب البغدادي (ت463هـ) قطعة من السيرة الذاتية ، وتعد من أقدم ما وصل إلينا من هذا الفنّ في العصر الإسلامي ، وهي مارواه

سلمان الفارسي(ت36هـ) عن نفسه .⁽¹⁾ وعدت هذه القطعة أول بذرة للسيرة الذاتية في القرن الأول الهجري .

وجاءت بعض السير الذاتية متناثرة في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ،منها :سيرة الشاعر الأموي(نصيب) متحدثا عن نشأته ،والمعاناة التي عاناها في مواجهة الصعوبات ،وحسد بعض الشعراء له مثل الفرزدق وجريير .⁽²⁾

وأیضا من السير الذاتية التي وردت في كتاب الأغاني (سيرة إبراهيم الموصلی 188هـ)⁽³⁾ وسيرة إسحاق الموصلی، التي فيها الكثير من الأحداث والحوارات التي تظهر تمكنه من الغناء وتفوقه على أقرانه ، وتحتوي كذلك على كثير من المحاورات التي تظهر براعته في الحديث ،وجرأته في مجالس الخلفاء .

ولكتاب ابن أبي أصيبعة ، فضل كبير في نقل رسائل كثيرة كتبها فلاسفة وعرب ومسلمون (كحنين بن إسحاق ت 260هـ) ، الذي يعد أكبر مترجم لكتب (غالينوس)، وقد ترجم لنفسه، وصور الشدائد والمصائب التي أصابته، وتعد تلك السيرة أقدم نص في ترجمة المتفلسفة لأنفسهم .⁽⁴⁾

(1) تاريخ بغداد : 1 / 177

(2) الأغاني : 3 / 5

(3) جاءت سيرته على شكل أخبار وقطع من السير المتناثرة ،وعكست نفسية إبراهيم الموصلی ، وبيئت لنا معاناته في علم الموسيقى والغناء ،والمصاعب التي واجهها حتى وصل القمة ، وسيرته زاخرة بالأحاديث الطريفة والممتعة والغريبة التي كانت تحدث له في مجالس الخلفاء والوزراء ، وعكست سيرته قدرته على صياغة الحوار، وقدرته على تصوير نسبه الموصلی . (السيرة الذاتية في الأدب العربي : 40) .

(4) الترجمة الشخصية:12

(وسيرة ابن سينا⁽¹⁾ 428هـ) ، (وعلي بن الرضوان 554هـ⁽²⁾) .

ومن السير الذاتية التي وردت في كتاب (معجم الأدباء لياقوت الحموي) ، سيرة علي بن البيهقي (ت 565هـ⁽³⁾) .

ولكن السيرة الذاتية لم تتخذ مصطلحا خاصا بها في الأدب العربي القديم ، كما لم تستقل الكتابات الذاتية بكتب خاصة بها ، قبل القرن الخامس الهجري .

وهناك من السير الذاتية ما ورد على شكل رسائل مثل (رسالة الصداقة والصديق ، لأبي حيان التوحيدي 414 هـ) ، وفيها تحدث عن نشأته وصفاته ، وأحوال العصر الذي عاش فيه . وقال عنه الدكتور : إحسان عباس : " بأنه انتهج لنفسه أسلوبا فنيا حيويا عامرا بالفتات الدقيقة " ⁽⁴⁾ .

وأیضا رسالة (" لفتة الكبد إلى نصيحة الولد " لابن الجوزي 510 - 597هـ⁽⁵⁾) .

وهي رسالة وجهها ابن الجوزي إلى ابنه على شكل نصائح ضمّتها بعضا من سيرته الذاتية . ولعل (سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة 470هـ⁽⁶⁾) من أوائل السير الذاتية ، ومن أقربها إلى السيرة الأدبية ، لما يتوفر فيها من عوامل وسماتها السيرة الذاتية .

(1) هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا ، يعد من كبار العباقرة والفلاسفة والحكماء ، في مجال الطب والحكمة والموسيقى . شمل نتاجه الضخم الموضوعات العلمية ، وما يثير الإعجاب بعبقريته الفذة شروحاته المفصلة الدقيقة ، لما أتى به الحكماء اليونان ، والعرب والفرس واليهود .

(2) يوضح ابن رضوان ، أن سيرته جاءت على شكل مذكرات كتبها خلال ما يقرب من الثلاثين عاما ، كان يغير فيها كل سنة حتى تثبت على الشكل الذي وصلتنا به ، وواضح اعتقاده بالنتجيم ، واهتم بتبيان طريقة تعلم الطب ، وذكر عاداته وصفاته وأخلاقه الحميدة ، (انظر : عيون الأنباء في طبقات الأطباء 561) .

(3) تحدث فيها عن ترجمته الذاتية في كتابه مشارب التجارب ، تحدث عن نسبه ومولده ونشأته ، وأحوال الزمان الذي عاش فيه . (معجم الأدباء 13 / 219) .

(4) فن السيرة : 20

(5) صاحب هذه السيرة هو عبد الرحمن بن علي بن حسن بن جعفر الجوزي ، ولد في بغداد سنة 510هـ ، وتوفي سنة 597هـ . (انظر : لفتة الكبد إلى نصيحة الولد : 22) .

(6) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة : 12 .

ولعل أيضا كتاب (المنقذ من الظلال لأبي حامد الغزالي 505 هـ) من أوائل السير الذاتية الفلسفية التي وصف فيها رحلته العقلية ، وكيف وصل أخيرا إلى الحق " (1).

وكذلك فإن سيرة عمارة اليميني (النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية 527 هـ) ، من أوائل السير الذاتية ، ويرى الدكتور شوقي ضيف أن عنوان الكتاب خادع ، ولا يدل على حقيقته ، فهو ليس طائفة من الأخبار عن هؤلاء الوزراء ، وإنما هو في إخباره عن نفسه وبعبارة أدق هو ترجمة ذاتية له . (2) وستتناوله الدراسة في الفصل الثالث بشكل مفصل .

و يعد كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ (584 هـ) ، من أهم كتب السير الذاتية في الأدب العربي القديم ، وأنضجها ، وأقربها إلى مفهوم السيرة الأدبية في العصر الحديث (3). وستتناوله الدراسة بأسلوب تحليلي وصفي .

(1) الترجمة الشخصية : 68- 75 .

(2) المصدر السابق : 91

(3) من كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ : 51.

الفصل الثالث

- * تطور فن السيرة في الأدب الأيوبي .
- * أثر الحروب الصليبية في تطور فن السيرة في العصر الأيوبي
- * النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية .
- * النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية .

يهدف هذا الفصل إلى دراسة فن السيرة في العصر الأيوبي ، محاولا كشف جذور هذا الفن في أدبنا العربي وتراثنا ، لاسيما وأن كثيرا من النقاد والباحثين والدارسين لم يخصصوا في كتاباتهم أبوابا ، أو فصولا ، تختص بفن السيرة في العصر الأيوبي وتهتم به ، كما فعلوا في فن الرسائل والخطابة وغيرها من الكتابات النثرية . ولا أعلم سبب عدم تخصيص أبواب لهذا الفن في هذا العصر ، وإن ذكروا السيرة في العصر الأيوبي، فيذكرونها فقط في التعريف بشكل بسيط غير مفصل ، مع أنه كان لها دور بارز ، في التعريف بالعصر الأيوبي ، وما كان يجري فيه من حروب ، وفتن ، ومغامرات ، ونوادير ، وأحداث أغفلتها كتب التراجم ، أو أحداث لا يتم معرفتها إلا من خلال قراءة سير حياتهم ، فهل كان في العصر الأيوبي سير؟ وإذا كانت قد وجدت فكيف تطورت ؟ وما أسباب كتابتها ؟ ومن كتابها ؟ وما أسلوبها ؟ وهل اختلفت عن غيرها من سير السابقين ؟ وما أهم مميزاتها وخصائصها ؟ .

يعد القرنان الهجريان الخامس والسادس من أكثر القرون ظهورا للعلماء والأدباء والكتاب، الذين أبدعوا في الأجناس الأدبية كافة ، وخاصة النثر ، فهما بالنسبة للقرن الذي سبقهما والقرون الأخرى التي كانت قبلهما ، نجدهما حافلان بحركة أدبية ونقدية نشطة، وقد يكون لذلك أسبابه السياسيّة و التاريخيّة ، خاصة إذا علمنا أن هذين القرنين ولآخر عقدين فيهما قد شهدا الحروب الصليبيّة بكل تأثيراتها وظروفها الخطيرة والمعقدة ، فقد عاشت الأمة في بداية هذا القرن حالة من التفكك والنزاعات والكوارث الطبيعية العديدة ، إلى أن كتب الله لها التوحد والنصر على يد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي في أواخر القرن السادس الهجري .

ولعل هذه الظروف أثرت في مسيرة العلم والتأليف، ومنها تأليف كتب التراجم والسير، التي كان لها دور كبير في التعريف بعلماء وأدباء وكتاب ساهموا في نشر الثقافة الأدبية في العصر الأيوبي (1).

لقد اشتمل العصر الأيوبي على أحداث عظيمة، ألهبت العواطف، وفجّرت الأحاسيس فانطلق كثير من أدباء العصر يصوّرون انتصارات المسلمين على أعدائهم، ويشيدون بالسلطين والملوك والقادة أمثال القائد نور الدين و السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي وأولاده من بعده ، لذلك لا غرابة أن نجدهم في هذا العصر يسخرّون فنهم النثري في مقاومة الغزاة، والتحريض على ذلك، لأن- الكتاب - هم قلب الأمة النابض، وعواطفه الوقّادة.

وقد كان ابن شداد ، وابن خلكان ، والعماد الأصفهاني ، وعمارّة اليمني، وأسامة بن منقذ وغيرهم من هؤلاء الأدباء الذين خلّدوا بأدبهم ومؤلفاتهم الانتصارات الأيوبيّة الباهرة، وخلّدوا سيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي .

فالسيرة في العصر الأيوبي مزج دقيق بين ما هو ذاتي وما هو عام ، وما هو شخصيّ وما هو موضوعي ، وهي تقدم صورة حية نابضة بالحياة لأحداث وأفكار وقعت (2). وهي فن أدبي رفيع ، أمّد الدراسات التاريخية والاجتماعية بمادة لا تتضب من الصور الحيّة ، وتكشف الضلال والأضواء والألوان في الأحداث والوقائع التي تتناولها فنجد أن السيرة في العصر الأيوبي تعلقت بعدد من الأحداث ، منها العلاقة بين الكاتب

(1) انظر : الفصل الثالث من الرسالة ، الحياة العلمية والأدبية في العصر الأيوبي .

(2) انظر : مظاهر تطور النثر في العصور المتتابعة : 104 .

والسلطان ، التي تصفو وتكون علاقة حب ومودة وصدقة ، مثل السلطان صلاح الدين الأيوبي والكاتب بهاء الدين بن شداد ، وأحيانا ما تكاد تصفو حتى تتكدر ، وخاصة عندما يتداخل الدور الفكري مع الدور السياسي ، الذي كثيرا ما يطمح الكاتب إليه ، وتأثير هذا الدور على هامش الحرية المتاحة له ، وقد يدفع حياته ثمنا لفكره مثل عمارة اليميني (1).

فكان كاتب السيرة في ذلك العصر يقدم وصفا تفصيليا دقيقا ، للأحداث التاريخية والسياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية ، والمعارك الحربية ، ولأدوات القتال الحربية المستعملة في الجيشين (2) .

فهذا يدلّ على أن للأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعلمية والأدبية دورا كبيرا في تطور ونمو فن السيرة في العصر الأيوبي ، فالأحداث الجسام التي حلت بالبلاد في العهد الأيوبي من فتن ، واضطرابات ، وغزو صليبي لبلاد الشام ومصر وبلاد الرافدين ، كل ذلك أدى إلى تطور هذا الفن الأدبي النادر من نوعه ، والذي قلما نجده في عصر من العصور السابقة ، مما أدى إلى ظهور كتاب للسير و مترجمين ترجموا لأنفسهم ولغيرهم ، وساعد ذلك أيضا في وجود أسلوب وفن جديدين للكتابة النثرية .

فقد كان لبعض كتاب السير الذين يعتمدون على التأريخ في العصر الأيوبي عناية كبيرة في كتابة السيرة ، والحق أنه كما كانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تحتل مكانة متميزة في النثر الأيوبي ، فكذلك وجدنا السيرة النبوية

(1) انظر: النوار السطانية:1، وانظر: البداية والنهاية:2/795-796.

(2) انظر : مظاهر تطور النثر في العصور المتتابعة: 108-109 .

تحتل المكانة نفسها في كتب التاريخ المنسوبة إلى هذا العصر، وممن اشتهر بذلك في العصر الأيوبي: أبو علي الجواني⁽¹⁾، والعماد الأصفهاني⁽²⁾، وأبو شامة⁽³⁾، وابن خلكان⁽⁴⁾، وبهاء الدين بن شداد صاحب كتاب (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيّة) وهي أهم سيرة غيرية في العصر الأيوبي، ومن أهم مصادر التّاريخ لحياة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي وأحواله، خلال المرحلة الأخيرة من حياته بعيد فتح القدس وحتى وفاته، وهو بذلك يكمل المصادر التي سبقته، كتاريخ ابن الأثير، ومؤلفات الأصفهاني وغيرهما كما سنبين ذلك لاحقاً في سيرة ابن شداد .

(1) هو أبو علي الجواني المصري، شرف الدين أبو علي محمد الحسيني، النسابة، كان نقيب الأشراف في الديار المصرية واشتغل في التصنيف في علم النسب، وله تصانيف كثيرة منها: كتاب طبقات الطالبين، وله مؤلفات في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، توفي سنة 588هـ، وقد اشتهر في كتابة التراجم والسير وساعده في ذلك درايته الواسعة في علم الأنساب، وترجم لصلاح الدين الأيوبي، واعتنى ببعض الحوادث التي جرت في عصر الناصر صلاح الدين الأيوبي. انظر: وفيات الأعيان: 325/4

(2) هو الكاتب والأديب عماد الدين الأصفهاني، نشأ بأصفهان، وأتى بغداد في حدثه وتعلم في المدرسة النظامية، ثم انتقل إلى دمشق 562هـ، ورحل مع صلاح الدين إلى مصر، واستقر مقامه بها، وله عدة كتب منها الفتح القسي في الفتح المقدسي، وتحدث فيه عن سيرة صلاح الدين الأيوبي، وخاصة السنة التي تم فيها لصلاح الدين فتح بيت المقدس، وكتاب آخر هو خريدة القصر وجريدة العصر، وفيه تحدث عن سير أدياء القرن السادس الهجري، وهو حلقة من سلسلة كتب عنيت بالسير وتراجم الأدياء، والقادة. وأيضاً له كتاب تحدث فيه عن فن السيرة والتراجم سماه البرق الشامي وفيه ترجمة لنفسه وتحدث عن بعض ما مرّ به من أحداث وقد جمع فيه بين سيرته الذاتية وسيرة غيره فقد تحدث فيه عن صلاح الدين وفتوحاته، وأخبار بلاد الشام، وقد انتفع به المؤرخون وكتاب السير في التفسير والتحليل للأحداث التي كانت تجري في ذلك القرن آنذاك. انظر: وفيات الأعيان: 147/5 .

(3) هو عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة نشأ بدمشق، وتعلم بالإسكندرية، ثم رجع إلى القدس واشتغل هناك بالتدريس والفتيا، ومن أشهر كتبه كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، وربما كان هذا الكتاب سرداً للسير في العصر الأيوبي، وتصويراً لتاريخ الحروب الصليبية وتحدث فيه أيضاً عن أخبار مصر والشام، وفي حديثه عن صلاح الدين الأيوبي نجد أنه قد مزج الأدب بالتاريخ مزجاً لطيفاً، وأمدنا ذلك بصورة واضحة للأدب الإسلامي في مصر والشام، ولكتاب الروضتين من هذه الناحية، ما لكتاب السيرة لابن هشام، من القدرة على الإيحاء. انظر: فوات الوفيات: 100/4

(4) هو أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر ت 681هـ، له كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، وفي كتابه سير بعض أهل العلم والأدب، وترجمة لعدد من القادة، ويعد الكتاب ذخيرة علمية وأدبية ولغوية في غاية الأهمية. انظر: المصدر السابق: 383/3

فقد مثل هذا الكتاب (النوار السلطانية والمحاسن اليوسفيّة) أنموذجا فريدا من كتب السّير في ذلك العصر الذي ازدان بهذا اللون من الأدب ، فقد أتحننا بنص رائع لا نجد له مثيلا في باقي مصادر تراثنا العربي المكتوب ، كتبه عمّا شاهدته بعينه، وخبره بنفسه، وتفاعل بأحداثه ، لا بل وشارك في هذه الأحداث ،ونال شرف الجهاد والقتال ، في صفوف قوات السلطان الناصر صلاح الدين ، وسنرى في هذه السّيرة أننا سنلمح مواقف إنسانيّة صدرت عن السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي ، المتناهي في كرمه وإنسانيّته وفروسيّته ،رصدها ابن شداد وروى لنا أخبارها وأخبار المعارك والفتوحات الخالدة ، التي نال الناصر صلاح الدين شرف القيام بها ، فارتبط اسمه بكل كتب السيرة والتراجم والتاريخ ، وأصبح هو الرمز الخالد الذي يستدل على ذلك العصر فيه ، وإذا أُريد التعريف في العصر الأيوبي ، فيعرف به ، لأنه هو العنصر البارز الذي ارتبط اسمه في تراثنا بالجهاد والتحرير والإخلاص لصالح الأمة ، فلقد أُلّف عن الناصر صلاح الدين مئات الكتب قديما وحديثا بالعربية ، وبأكثر اللغات المعروفة، ولكن - برغم ذلك كله - تبقى سيرة ابن شداد من أكثرها حيوية وأصالة بالرواية ، وإثارة للإعجاب ومساسا بالشعور. والعجيب أنه على أهميته البالغة هذه ، لم يكتب عنه الكثير ، ولم تدرس سيرة حياته دراسة شاملة .

"ويرى بعض النقاد أن السّيرة في العصر الأيوبي مرتبطة بالتاريخ ، وكما نعلم أنّ السّير بشكل عام نشأت في أحضان التاريخ ، وترعرعت فيه ، واتخذت سمنا واضحا، وتأثرت بمفاهيم الناس على مر العصور ، وقد تقترب السيرة في العصر الأيوبي من التاريخ وبخاصة في الموضوعات السياسيّة ؛ لأن العصر الأيوبي عصر حافل بالأحداث التي

أثارت وأشعلت القدرة الكتابية للكتاب ، وشجعتهم على دمج أحداث التاريخ وصياغتها بأسلوب فني بارع ، غلب عليه الطابع الأدبي ، وأخرجه من السرد التاريخي إلى الأسلوب الأدبي الرفيع الذي عُرف بفن السيرة " (1).

فقد تقترب السيرة في العصر الأيوبي من التاريخ ، وقد تبتعد ، ولكنها لا يمكن أن تكون في أي حال من الأحوال تاريخاً محضاً ، فلكل فلسفته وغايته ، حتى إذا تغيرت النظرة إلى التاريخ وأصبحت له فلسفته الخاصة ، أخذ بعض النقاد والباحثين المحدثين يتساءل : أحقاً أن السيرة جزءٌ من التاريخ ؟ وقد أنكر الأستاذ كولنجود⁽²⁾ اعتبار السيرة في العصر الأيوبي سرداً تاريخياً ؛ لأنها تفقد القاعدة الصحيحة التي يقوم التاريخ عليها ، فحدود السيرة هي الأحداث البيولوجية بين ولادة شخص وموته ، من طفولته إلى آخر حياته ، وهذا ليس كله تاريخ⁽³⁾ .

فالسيرة في العصر الأيوبي جمعت بين أسلوب السيرة العربية القديمة وبين الأسلوب الجديد الذي اتخذته معياراً لها ، فأصبحت فيما بعد هي النموذج المحتذى والمقتدى به لنصوص السيرة اللاحقة ، وتشكلت مرجعية أساسية لهذه النصوص ، وكانت الباعث والمحفز لنضجها وتطورها وتجديدها ، ونرى أن السيرة في العصر الأيوبي شكلت أنماطاً ، إبداعية

(1) مجلة دراسات (صورة البطل المسلم والتصور الإسلامي) : 52

(2) هو روبين جورج كولنجود ، المستشرقون : 54/1

(3) السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم : 125

تحولت إلى عناصر قادرة ملهمة لهم ، كما شكلت نماذج معيارية فأثبتوا قدرتهم على إبداع أسلوب جديد من حيث الشكل والمضمون والأساليب والبعد عن التصنع والتكلف⁽¹⁾ .

فقد أدرك كتاب السيرة في العصر الأيوبي أهمية كتابتهم للسير ، لإدراكهم أنها تساعد على اتساع مساحة الرؤية وعمق روابط الصلة بين عظمة الماضي وتأثيره في ترسيخ عظمة الحاضر ، ولهذا فلقد صح إدراكهم لهذا الأمر .

ولقد واكبت السيرة في العصر الأيوبي كثيرا من التغيرات الحضارية والفكرية، وعبرت عنها بأسلوب فني إبداعي، وحافظت على الأسلوب العربي الموروث المتأثر بأسلوب الكتابات النثرية مع تجديد لذلك الأسلوب، والخروج عما سار عليه من قبلهم من السرد التاريخي.

• أثر الحروب الصليبية في تطور فن السيرة في العصر الأيوبي :

لم تعرف الأمة الإسلامية في تاريخ صراعها مع الغزاة حملة أشد خطرا وشراسة من الحملات الصليبية التي شنتها أوروبا باسم الدين ، وإنقاذ قبر المسيح(عليه السلام) ، إذ كانت تسعى إلى السيطرة على أرض المسلمين ، ونهب خيراتهم ، وتعميق الخلافات القائمة بينهم وإلى تشويه عقيدتهم وطمس معالمها⁽²⁾ .

وقلّ أن شهد المسلمون في العصر الأيوبي في تاريخ حروبهم حربا أخطر من حربهم مع الصليبيين ، وهي حرب شاركت فيها الشعوب الأوربية تقريبا ، ضد الإسلام والمسلمين ، فدافع المسلمون بكل مايملكون من عدة وعتاد ، وخرج منهم قادة شهد لهم التاريخ بالعزة والكبرياء .

(1) انظر: السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم:124-125

(2) القدس ومعاركنا الكبرى :1/366

أمثال نور الدين زنكي ، والسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي ، وقد ساعدت الحروب الصليبية على انتعاش الحياة الأدبية والثقافية والفكرية ورفيها في بني أيوب ، فقد كانت عاملا في تشجيع الكتاب على الكتابة ووصف بطولات القادة والأمراء والجنود في الذود عن حمى البلاد وحمائتها ، واسترجاعها من أيدي الصليبيين ، وبرز في ذلك العصر عدد كبير من الكتاب من أمثال العماد الأصفهاني ، وابن الأثير ، وأسامة بن منقذ ، وبهاء الدين بن شداد .

وقد عانى المسلمون في بلاد الشام وغيرها من وجود الكيان الصليبي على أرضهم وخاصة في بدايات الاحتلال، إذ خلت الساحة من القيادة المخلصة ، وسلبت الأرض ، وانتهكت للحريات، وأعملت السيوف في الرقاب ، وتعرضت المقدسات للطمس والتشويه ، وقطعت طرق المواصلات، وأرغم الناس على مفارقة أوطانهم وديارهم ، وهيمن اليأس والمرارة على الناس، إذ كانوا لا يجدون من يدافع عنهم ويرد حقوقهم المغتصبة⁽¹⁾.

وظل ذلك الأمر على هذا الحال ، إلى أن هيا الله لهم القيادة الواعية المؤمنة بعقيديتها وحقوق أمتها، أمثال عماد الدين زنكي ونور الدين زنكي، والسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، الذين عملوا على رص الصفوف ، ومواجهة الغزاة ، واستعادة البلاد من أيديهم .

ولما كان الكتاب والأدباء هم ضمير الأمة الواعي ، في كتاباتهم المعبرة عن همومها وتطلعاتها ، فقد اتخذوا من أقلامهم أداة لمقاومة الغزاة ، والتحريض على مواجهتهم ، وتحرير البلاد المغتصبة من أيديهم ، إذ اتخذوا من الكلمة المعبرة الموحية المؤثرة وسيلة لتصوير

(1) الحركة الصليبية: 26/1

خطر الإفرنج والتصدي لهم ، فعملوا بذلك على استثارة الهمم، وشحن النفوس، وحثّها على التضحية والموت في سبيل الله ونصرة دينه (1).

وذلك لأن مقاومة الغزاة بالكلمة ،قد رافقت مقاومتهم بالسيف ، وهذا أمر أدركه القادة أمثال صلاح الدين الأيوبي ، إذ أحسوا بأهمية الكتاب والأدباء، ومما يؤكد ذلك أن السلطان صلاح الدين قد خاطب جنده بعد تحرير بيت المقدس قائلاً : " ... لا تظنوا أنني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل (2) " .

وحتى تتضح الصورة ونوضح أن الكتاب المسلمين ، الذين تحدثوا في كتاباتهم عن الخطر الصليبي بأبعاده المختلفة ، لم ينطلقوا من فراغ ، ولم يبنوا ما حذروا منه على السماع و التخيل، فنجد أنه من المفيد أن نورد بعض ما كتبه الكتاب من سير في ذلك العصر والتي تصور جرائم الغزاة بحق السكان الأبرياء ، إذ وضعوهم أمام مصيرين لا ثالث لهما : إما القتل ، أو التهجير القسري لمن نجا منهم من سيوف الغزاة ، وتصوير دور القادة في التصدي لهذا الأمر ، وفي ذلك مما ورد عن ابن شداد في سيرته في تصوير جهاد صلاح الدين الأيوبي وأولاده من بعده يقول في ذلك ابن شداد : " تحدث لي صلاح الدين ، فقال لي : أما أحكي لك شيئاً ؟ قلت بلى . قال: في نفسي أنه متى يسر الله تعالى لي بقية الساحل قسّمت البلاد ، وأوصيت ، وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم ، أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت " (3).

(1) تاريخ الحروب الصليبية : 435/1

(2) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان : 1 / 473

(3) النوادر السلطانية : 78

فعظم وقع هذا الكلام عند ابن شداد، وقال للسلطان الناصر صلاح الدين : " ليس في الأرض أشجع نفسا من المولى ، ولا أقوى نية منه في نصره دين الله " (1).

نعم ، لقد شكل الغزو الصليبي لبلاد المسلمين خطرا حقيقيا ، فقد أدرك بعض الكتاب أمثال بهاء الدين بن شداد ، والعماد الأصفهاني ، وابن خلكان ، وأسامة بن منقذ ، وغيرهم من كتاب السير والتراجم ، لهذا العصر ذلك ، واكتووا بناها وويلاتها ، ومن أجل ذلك ، فقد استأثرت الحروب الصليبية باهتماماتهم ، فكانت محور كتاباتهم ، إذ بدأ الحديث عن الخطر الصليبي واضحا جليا في كتاباتهم ، في الحديث عن جرائم الغزاة ، وعمّا ارتكبه من جرائم بشعة بحق الإنسان العربي المسلم ، الذي كان يعيش في وطنه وأرضه ، أمنا مطمئنا يقيم حيث يشاء ، ويتنقل حيث يريد ، وقد تجسدت كتب السيرة في العصر الأيوبي في الحديث عن القادة ، الذين أخرجوا هذه الأمة من هذا الظلام الدامس ، إلى النور الجلي ، أمثال عماد الدين زنكي ، وابنه نور الدين زنكي ، ثم السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي .

فقد شهد العصر الأيوبي فتنا ونزاعات كثيرة كانت تدور إمّا بين الجنود ، أو بين القادة وصراعهم على الحكم ، مما دفع بعض الكتاب في ذلك العصر لكتابة سيرة حياتهم ، وتصوير ما مرّ بهم من أحداث ، وفتن ، ونزاعات داخلية وخارجية ، وبطولات ، أمثال (عمارة اليمني) و(أسامة بن منقذ) ، فالحروب الصليبية أذكت قرائح الكتاب ، وحركت مكانم انفعالاتهم ، ودفعتهم إلى كتابة سير الأبطال والملوك ، وسير أنفسهم ، بأسلوب جديد لم يشهد له مثيل من قبل ، فقد عكسوا في كتاباتهم صدى بطولات الجيش وقواده في مقاومة الأعداء وتبديد شملهم ، وتحطيم معانقهم ، فلقد صور كتاب السيرة في ذلك العصر في سيرهم الذاتية والغيرية الحروب التي دارت رحاها على أرض الشام ومصر ، وتحدثوا فيها عن مشاعر

(1) النوادر السلطانية: 78

الناس وأحاسيسهم تجاه تلك الحروب ، فقد تحدثوا وركزوا على سيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي ، عندما استرد القدس ، وحرر المسجد الأقصى من مخالبي الصليبيين (1).

وإذا تتبعنا تطور السيرة الذاتية في العصر الأيوبي نلاحظ أنها قد تميزت من حيث نمو الشخصية ، وصراعها النفسي والروحي ، ورقيتها في الحديث عن الذات ، وأسلوبها السهل الواضح وتصويرها جوانب مختلفة من الشخصية ومتعتها الأدبية ، والتفوق في السرد القصصي ، وجعل صياغتها مترابطة ، وإغنائها بالتجارب الإنسانية ، والابتعاد فيها عن أي تكرار أو استطراد أو شطحات تؤثر في السيرة (2).

ف نجد أن كاتب السيرة الذاتية في العصر الأيوبي ، يجعل سيرته تجمع بين الجوانب والموضوعات السياسية والاجتماعية والفكرية في عصره بأسلوب أدبي فني رفيع ، مما يزيد في نفاستها وبيان قدرتهم على فهم الحياة وإظهار مقدرتهم في تصويرها بما يمتلكون من ناصية اللغة ، وتطويعها لخدمة صورهم ومعانيهم ، وتصوير صراعاتهم والفتن المحتدمة والحروب الطاحنة التي كانت تسيطر عليهم هذه الفترة (فترة الحروب الصليبية) تصويرا رائعا ، لأنهم كانوا شهودا عيان ، عاصرو الفتن ، وشارك معظمهم في هذه الحروب (3) .

ولعل "كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية" ، و"كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " خير مثال على تطور فن السيرة في ذلك العصر .

(1) انظر : النوادر السلطانية : 150- 156 ، انظر : ذيل تاريخ دمشق : 219-220 .

(2) مجلة البحرين الثقافية (البناء السردى للأحداث في العهد الأيوبي والمملوكي) : 198

(3) انظر : دراسات في الأدب العربي في ظل الدولة الأيوبية : 55- 78 .

• النكت العصريّة في أخبار الوزراء المصريّة لعمارة اليميني (527هـ).

صاحب هذا الكتاب هو " عمارة بن أبي الحسن بن زيدان الحكمي من قحطان ، أبو محمد الملقب بنجم الدين اليميني الفقيه الشاعر".

ومعظم كتب التراجم تركز في ترجمته على سبب مقتله، وهو اشتراكه في مؤامرة مع من كانوا حكاما وأعيانا أيام الدولة الفاطميّة لإعادة الدولة الفاطميّة، وكاتبوا من أجل ذلك الإفرنج، وتُكشف المؤامرة، ويتم إعدام المتآمرين، والذين كان من بينهم عمارة اليميني (1).

وعنوان سيرته " النكت العصريّة في أخبار الوزراء المصريّة " عنوان خادع ولا يدل على حقيقته ، كما يقول الدكتور شوقي ضيف : فهو ليس طائفة من الأخبار عن هؤلاء الوزراء ، وإنما هو في أخباره هو نفسه وبعبارة أدق هو سيرة ذاتيّة له (2).

ولم يتركنا عمارة حيارى ، بعد أن ترك لنا سيرته الذاتية ، وسجل فيها مدى اضطراب عصره ، وتناول علاقاته برجال الحكم في مصر ، الخلفاء والوزراء ، وصور الحياة الثقافية والفكرية ، وأثبت قصائده في مديح الدولة الفاطمية وراثتها، وشكواه و لصالح الدين والقاضي الفاضل ومدحها .

وأسلوبه سهل واضح بين ، وهو يقول في مقدمة سيرته : "فضل الله الإنسان بعقله ونطقه، وهذا مجموع ما كتبت ، لم أقصد به شيئاً مخصوصاً ، ولا فناً مخصوصاً ، ولم أورد فيه إلا ما أملاه خاطر ، أو رواه من أقيمه في الصدق مقام الناظر وبالله التوفيق ... وأشرت فيه إلى النكت العصريّة في أخبار الوزراء المصريّة ، وما دام الليل والنهار دائمين، والشمس والقمر دائبين ، فالعجائب المتولدة صيود ، والتواريخ لها قيود ، وما يخلو الإنسان من بداية

(1) البداية والنهاية : 2/ 795-796

(2) الترجمة الشخصية : 91

مهده إلى غاية لحده من الوقوع إما في أحسن الأحوال ، أو قبح الأحوال " ويستطرد وكأنه يقرأ الغيب " وإذا لم تؤرخ النوازل ، عفا النسيان آثارها وطمس الإهمال أنوارها ... وأشارت فيه إلى ما شاهدته من العجائب العصريّة في أخبار الوزراء المصريّة من غير إفراط في أوصافهم ، ولا تفريط في إنصافهم ، وفي كتابي هذه اقتصر وأختصر ، وأذكر من مولدي وموطني ونسبي طرفا أبني عليها أول حالي ، وآخر مالي ، وقد قيل إن الإنسان من حيث يولد يوجد ، ومن حيث يُنبت يُثبت " (1) .

فهو يتحدث عما يتعلق به شخصيا ، فيتحدث عن عدد من وزراء مصر في عصره ، وبين ما جرى بينه وبينهم ، أو بينه وبين أقاربهم من أحداث ، ثم يذكر ما قاله فيهم من أشعار .
ومن البين أن شخصية عمارة في سيرته أبرز من شخصية أي واحد من هؤلاء الوزراء .
يقول عمارة : " قد أتيت على نبذة يسيرة من الفقر العصريّة ، فيما شاهدت من أحوال الوزراء المصرية ، وأنا ذاكر في هذا المختصر نتفا جرت لي مع أقارب الوزراء ، وأكابر الأمراء ، فما منهم إلا من كثرته ، وعاشرته ، وبلوت سمينهم وغيثهم ، وقويهم ورثهم ، وانكشف المصقول من الصّدّي والجيد من الرديء " (2) .

وهو يبين منهجه الذي اعتمده في كتابة سيرته ، فيقول : " وتجنبت سجع المتكلفين ، وفارقت ذلة المتخلفين ، وأطلقت أعنة الكلام ، وسامحت أسنة الأقلام ، فلا في سهل الهزالة أنا حاطب ، ولا في حزن الجزالة أنا خاطب ، وأشارت فيه إلى ما شاهدته من العجائب العصريّة ،

(1) النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية : 5-6

(2) المصدر السابق : 93

في أخبار الوزراء المصريّة ، من غير إفراط في أوصافهم ، ولا تفريط في إنصافهم ، وإن تخلل ذلك شيئاً ليس منه فبالعرض ، فأصله لا بالعرض ، والحديث كما قيل شجون ، والجدّ قد يُخطئ بالمجون ⁽¹⁾.

وامتاز أسلوبه في سيرته الذاتيّة بالبعد عن السجع المتكلف ، فجاءت عباراته سهلة واضحة وسلسة ، ومع هذا حافظت على جزالتها ، (فلا في سهل الهزالة أنا حاطب ، ولا في حزن الجزالة أنا خاطب⁽²⁾) ، واتسمت سيرته بالصدق والإنصاف فيما كتب عن نفسه أو عن غيره ، ويقوم أسلوب عمارة في السيرة على سرد الأحداث ، وتكثيفها ، وعرضها بشكل مختصر وجمل قليلة موجزة .

ويبدأ بذكر نسبه ، فهو قحطاني من تهامة من اليمن من مدينة يقال لها مرطان ، ويبين أن أهلها بقية العرب في تهامة " لأنهم لا يساكنهم حضري ، ولا يناكحونه ، ولا يجيزون شهادته ، ولا يرضون بقتله قودا بأحد منهم ، ولذلك سلمت لغتهم من الفساد " ⁽³⁾.

وكان أجداده سادة القوم ، ومنهم العلماء والمصنفون ، ويركز في حديثه على نسبه على عمه علي وصفاته ، والذي يبدو أنه قدوة شاعرنا ، وتظهر أبعاد إنسانية واجتماعية عند حديثه عن عمه ، فيعكس النظام الإقطاعي الذي كان سائدا ، وإن كان يخلو من الاستبداد ، ويظهر نظام التكافل الاجتماعي ⁽⁴⁾.

ويتحدث بعد ذلك عن رحلته إلى زبيد للتعلم ، وعمله بالتجارة ، وصلته بملوك اليمن ، وحج (سنة 594هـ) فبعث به صاحب مكة رسولا إلى الفائز بن الظافر خليفة مصر الفاطمي

(1) النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية : 6-7

(2) المصدر السابق : 6

(3) المصدر السابق : 7

(4) انظر : المصدر السابق : 8-9

ووصلها (سنة 550هـ) ، وكان الوزير بها طلائع بن رزيك⁽¹⁾ ، فاستقبله بقاعة الذهب بقصر الخليفة ، ونشده قصيدة في مدحه ومدح الخليفة، فتهال عليه الأعطيات والهدايا⁽²⁾ و " وتصور لنا هذه السيرة أحوال مصر السياسيّة ومجالسها الأدبيّة"⁽³⁾ .

ويبين أيضا في سيرته حال البلاد عندما قُتل الوزير الصالح بن رزيك ، إذ اشتعلت المنافسة الحادة بين الوزراء والقادة ، واستتجد الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بنور الدين زنكي صاحب الشام ، فأرسل لنجدته أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، وتتوالى الظروف والأحداث ويتولى الوزارة شيركوه ومن بعد ، ابن أخيه "صلاح الدين" ، وتنعكس هذه الأحداث على السيرة الذاتية لشاعرنا ، مما جعله يصف العديد من صورها ، منها مقتل الصالح ابن رزيك ، ويذكر في كتابه أنه استطاع مع كل التغيرات التي حدثت معه ، أن يحافظ على علاقات ودّ وصداقة مع الذين تقلبوا على كرسي الحكم ، ونظم في كل منهم المدائح ، وتلقى منهم العطايا.

فمثلا لم يمنعه شيء من أن يتأسى على دولة بني رزيك ، ويذكر قائلا " إنما زالت دولة مصر بزوالهم " ⁽⁴⁾ ، أما شاور خصم بني رزيك فيقول عنه : "... أما أخلاق شاور فكانت مستورة باستمرار السلامة ، والطاعة ، والاستقامة ، ولم يكن فيها أقبح من قتل الناصر بن الصالح ، فإنها سودت صفحته "⁽⁵⁾ .

(1) هو الملك الصالح أبو الغارات ، ولد سنة 495هـ ، ولي وزارة العاضد ، وتزوج ابنته ، قتل في كمين وهو خارج مجلس العاضد ، سنة 556هـ .وفيات الأعيان : 2/526.

(2) النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية : 32

(3) الترجمة الشخصية : 92

(4) النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية : 67

(5) انظر : المصدر السابق : 68

ولا يلبث بعد تولي شاور الحكم إلا وقدم له الولاء والطاعة ومدحه ، فهذا يدلّ على تقلب الأوضاع في حياته ، وعدم استقرارها ، ومن جانب آخر، فإنه يبرهن على صدق وموضوعية سيرته من خلال عدم إخفاء ما يعيبه ، وإظهار ما ينصفه .

ونرى أن أهم ما يميز سيرة عمارة اليمني ، قدرته التصويرية ، وتطويع اللغة في رسم صورته الفنية ، التي استطاع من خلالها تصوير مشاعره وأحاسيسه ، وكذلك مشاعر وأحاسيس وخواطر الناس ، الذين ذكرهم في سيرته ، وعرض آراءهم في فهم الحياة ، وتظهر هذه المقدرة التصويرية ، امتلاكه ناصية اللغة وتطويعها لخدمة صورته ، فهو يظهر في ثنايا كلامه غنى اللغة التي يمتلكها ، وإحاطته بالمعنى من جميع جوانبه .

ويسجل عمارة أيضا في سيرته الوقائع التاريخية عندما يتحدث فيها عن صلاح الدين وحصاره للإفرنج ، وعن الصراع المحتدم مع الصليبيين ، ويتحدث أيضا عن مسيرة التوحيد من الموصل إلى مصر إلى الشام ، التي أتمها صلاح الدين عندما وضع أمامه هدف توحيد الشرق ، وطرد الغزاة ، وتوحيد مصر والشام (1).

ويتسم أسلوب عمارة بتكثيف الأحداث ، واختصارها في جمل قليلة ، فهو يقول عن أول خمس سنوات من دراسته : "وفي سنة إحدى وثلاثين دفعت لي والدتي مصوغا لها بألف دينار، ودفع لي والدي أربعمائة دينار وسبعين ، وقال لي :تمضي مع الوزير ابن سخت إلى زبيد، وتتفق هذا المال عليك ، ولا ترجع إلينا حتى تفلح ، فقد احتسبناك عند الله وصبرنا عنك (2).

(1) انظر : النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية : 9 - 13 .

(2) هو الوزير مسلم بن سخت ، استلم الوزارة في العهد الفاطمي ، وولاه صلاح الدين واليا ، ثم عمل قاضيا حتى مات (النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية : 21).

وكان بيننا وبين زبيد في مهب الجنوب تسعة أيام ، فأنزلي الوزير داره وأولاده ، ولازمت طلب العلم ، فأقمت أربع سنين لا أخرج من المدرسة إلا لصلاة يوم الجمعة ، ثم زرت الوالدين في السنة الخامسة ، ورددت ذلك المصوغ إلى الوالدة ، ولم أحتج إليه .⁽¹⁾

وقد يتحرى عمارة في بعض الأحيان الإتيان بجمل مسجوعة مثل قوله : " وأما أخبار الكامل ابن شاور ، فإنني أفتح في ذكرها كنيفا ، وأوسعها ذما وتعنيفا " ⁽²⁾.

ولكن السجع لم يكن سمة مميزة في لغته التي اتسمت بالفصاحة والعفوية ، والتحرر من السجع ، والابتعاد عن التعقيد .

والقارئ لسيرة عمارة اليمني ، يجد الأمثلة الكثيرة سواء أكانت نثرا أم شعرا ، تعكس ما قلناه عنه ، من قدرة على التصوير ، والأسلوب الأدبي الجميل ، والتمكن من اللغة ، والمتعة القصصية السردية من خلال أسلوبه الذي ساعد على ترغيب القارئ في قراءتها ومتابعة أحداثها .

(1) النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية: 21 - 22

(2) المصدر السابق : 129

• النوار السلطانية والمحاسن اليوسفيّة لبهاء الدين بن شداد (539هـ)⁽¹⁾.

كان ابن شداد ثالث العلماء العظماء في ميادين الأدب والعلوم والسياسة والإدارة حول السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وهما القاضي الفاضل⁽²⁾ ، والعماد الكاتب⁽³⁾ ، إلا أنه تميز عنهما بأنه لم يتصل بصلاح الدين بواسطة أحد ، بل إن صلاح الدين قد عرفه في أثناء سفاراته إليه ، وهو الذي ألح عليه بالبقاء معه ، فكانت حياته مملوءة بالأحداث ، أرخها ابن شداد تأريخاً أدبياً فنياً متميزاً بسبب التصاقه الشديد بصلاح الدين الأيوبي .

ولا شك في أن كتابه النوار السلطانية هو الذي خلد ابن شداد ، وجعله من كبار كتاب السير ، كما حاول أن يخلد صلاح الدين فيه ، ولا يخفى الأثر الذي يتركه موضوع الكتاب على مؤلفه شهرة أو خمولا ، ولا يعني هذا أن ابن شداد كان يسعى إلى ذلك ، وإنما الذي لاشك فيه أنه ألفه مخلصاً ، لا يريد به إلا وجه الحق ، وردّ بعض جميل صنيع صلاح الدين لأمته ، وجعله قدوة لمن سيأتي بعده وتخليده رمزا تتجسد فيه على مدى الأيام أسمى صورة

(1) هو أبو المحاسن يوسف رافع بن تميم الأسدي ، ولد في الموصل عام (539هـ) ودرس في المدرسة النظامية ببغداد ، ثم درّس فيها ، عام 568هـ عاد إلى الموصل ليعمل فيها مدرّساً ، وتولى بعدها القضاء وقام بعدة سفرات بتكليف من حكام مدينته الزنكيين ، والتحق عام 584هـ بخدمة صلاح الدين حيث عمل قاضياً لعسكره ، وقاضياً للقدس الشريف ورافقه حتى وفاته سنة 589هـ كان ابن شداد تقياً ورعاً ، عالماً عاملاً ، لم ينافس أحداً على حطام الدنيا ، زاهداً في المناصب ، يعمل في الصمت أعمالاً جليلة تثبت جدارته ، فينال ما يستحق بهدوء وتواضع ، مما جعل صلاح الدين يزداد في تقريبه إليه ، حتى كان هو والقاضي الفاضل آخر من يبقى معه كل ليلة من ليالي مرضه الأخير ، الذي توفي فيه ليلة الأربعاء 27 من صفر عام 589هـ في دمشق ، وبعد ثلاث وتسعين سنة من التعب المضني في ميادين السياسة والعلوم والآداب أسلم ابن شداد روحه لبارئها في حلب عام 632هـ ، ودفن في تربته التي أنشأها . (انظر: الذيل على الروضتين : 163) و(وفيات الأعيان: 84/7-100).

(2) أبو علي ، عبد الرحيم بن علي بن الحسين البيساني (529 - 596هـ) ، انظر : وفيات الأعيان : 158/3.

(3) انظر حاشية الفصل الثالث : 67

للفروسية والنبل والعروبة والإخلاص ،تزرع الأمل منيرا في أكثر ليالي الأمة ظلما ، ولنؤمن إيماننا راسخا ، أن الأمة التي حررت القدس بعد احتلال وحشي دام واحدا وتسعين عاما قادرة على أن تحررها بإذن الله في عصرنا الحديث هذا مرة أخرى .

ولقد قسم ابن شداد كتابه إلى قسمين :

القسم الأول : في مولد صلاح الدين وخصائصه وأوصافه وشمائله الراجحة في نظر الشريعة الوفية وخلاله وأخلاقه المرضية .

القسم الثاني :في تقلبات أحواله ووقائعه وفتوحاته وغزواته وتواريخ ذلك إلى آخر حياته .

وفي القسم الأول، ذكر ابن شداد مولد صلاح الدين سنة 534هـ ، وتحدث عن علاقته بوالده وبعمه أسد الدين شيركوه ، كما تحدث عن صلته بنور الدين وحبه له ، ثم تحدث عن عقيدة صلاح الدين وشدة تدينه ، وأنه كان محافظا على الصلاة بوقتها ، والزكاة لم تجب عليه؛ لأن عطاياه لم تمكنه من أن يملك نصابها ، حتى أنه عندما توفي لم يخلف لورثته شيئا قط ،ما عدا سبعة وأربعين درهما ودينارا واحدا ، كما كان حريصا على صيام رمضان وقضاء ما فاتته منه بسبب الجهاد ومقتضياته⁽¹⁾.

ثم ذكر ابن شداد شدة اهتمام صلاح الدين بالجهاد ، وقد ألف كتابا عنه ، كان كثير المطالعة له ، وذكر أيضا ابن شداد طرفا من صبره واحتسابه ، ونبذا من حلمه ومروءته ومكارم

(1) انظر : النوادر السلطانية، ت : أحمد أبيش : 33-55

أخلاقه وعفوه ، وتذكرنا صفاته الأنفة الذكر بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين (1).

وكانت له طريقة خاصة في سيرته هذه ، فهو إذا تكلم مثلا في إحدى صفات صلاح الدين كصفة العدل بدأ بآية قرآنية أو حديث نبوي شريف ، أو كليهما معا ، ثم ذكر ما يعلمه من تمسك السلطان بهذه الصفة ، وذكر طرفا من نواتجه في ذلك ، ثم ختم الحديث في هذه الصفة من صفات السلطان ، بالدعاء له بأن يرحمه الله برحمته الواسعة.

أما في القسم الثاني فإنه كان كثيرا ما يعتمد فيه على مشاهداته ومعلوماته الخاصة ، فاستطاع ابن شداد بهذه الطريقة أن يكشف لنا عن حوادث هامة في حياة صلاح الدين الأيوبي ، من الناحية الخلقية ، ومن الناحية السياسية ، بالقدر الذي لا نجد له نظيرا في المصادر التاريخية والأدبية الأخرى (2).

وتناول ابن شداد في كتابه تقلبات أحوال صلاح الدين ووقائعه وفتوحاته ، حسب تسلسلها التاريخي إذ بدأه بتاريخ ذهابه (أي صلاح الدين) إلى مصر بصحبة عمه أسد الدين شيركوه ، والأحداث التي جرت معه بعد أن تولى الوزارة ، وتحدث عن فضائله في الدولة الفاطمية ، وتسلمه مصر ، كما تحدث عن فاجعة وفاة نور الدين ، وما تركه من فوضى وفراغ ، إذ لم يستطع ابنه الصالح إسماعيل أن يملأه لصغر سنه ، وقلّة حكمته ، وطمع حاشيته وجهلها (3).

(1) انظر : النواتر السلطانية ، ت : أحمد أبيش : 40-44

(2) انظر المصدر السابق : 17-47

(3) انظر : المصدر السابق : 88-93

ولقد اهتمت سيرة بهاء الدين بن شداد بالأحداث الحربية التي خاض غمارها صلاح الدين، وأكثر السير التاريخية المصبوغة بالصبغة الأدبية، تدرس مثل هذه الناحية، فالسيرة الأدبية التاريخية تصور بطل السيرة من ناحية واحدة، وتلح عليها كالبطولة أو العظمة لإيضاحها، فقد صور بهاء الدين بن شداد صلاح الدين الرجل البطل المجاهد، فقال: " ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه، وقنع بالدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحية على مرج عكا، فلو لم يكن في البرج إلا لقتلته، ولا يزيد ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً" (1).

وصور ابن شداد شجاعة صلاح الدين، واهتمامه بأمر الجهاد، وصبره واحتسابه، وأعطانا نبذاً من حلمه، صوره البطل الشجاع والرجل الصابر، فقال " ولقد رأيتَه - رحمه الله - بمرج عكا، وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه، بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنما يكون متكئاً على جانبه إن كان بالخيمة، وامتنع من مد الطعام، بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكان يأمر أن يفرق على الناس، وكان مع ذلك قد نزل في خيمة الحرب قريباً من العدو، وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلبا لتعبية القتال وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأطلاب (2) ".

(1) النوادر السلطانية ت: أحمد أبيش : 53

(2) الأطلاب : جمع طلب، وهو لفظ كردي معناه الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال، أو الكتيبة من الجيش، وكان أول ما استعمل هذا اللفظ في مصر والشام. النوادر السلطانية : 56

وقد أشرنا من قبل أن صلاح الدين كان قد عين بهاء الدين بن شداد قاضيا لعسكره في سنة 584هـ ، ولهذا نجد أن ابن شداد يلزم صلاح الدين طوال الحقبة الأخيرة من حياته التي قضاهما في الشام ، أي من سنة 584هـ إلى سنة 589هـ ، لذا فهو يروي معظم هذه السير وأحداثها عن مشاهدة ، ونراه ينص في معظم الأحوال أنه رأى الأحداث التي يؤرخ لها ، أو سمع الأقوال التي يرويها ، أمّا إن كان لم يشهد حادثة ما بأم عينه، فإن الأمانة العلمية كانت تقضيه أن ينص على أنه كان متغيبا ، فهو يصف مثلا وقعة الرّمل في سنة 585هـ ، ويعقب على الوصف بقوله : " وهذه الوقعة لم أحضرها، فإني كنت مسافرا ، وما مضى من الوقعات شاهدت ما يشاهده مثلي ، وعرفت الباقي ، مثل ما يعرفه الحاضر في هذه الأمور "(1) .

لهذا عدت هذه السيرة أوثق المراجع للتأريخ لحياة الناصر صلاح الدين ، وبخاصة الفترة الأخيرة من حياته ، وهي فترة حافلة بالجهاد ضد الصليبيين .

إن سيرة ابن شداد تقدم وصفا تفصيليا ، دقيقا للأحداث التاريخية وللمعارك الحربية ، ولأدوات القتال والحرب المستعملة في الجيشين ، مما لا نجده في مرجع آخر ، وفي الكتاب مصطلحات حربية هامة تفيد الدراسات التاريخية العسكرية لعصر المؤلف وفي النص فقرات كثيرة ذات أهمية كبرى ، وصف فيها المؤلف بعض الآلات وصفا جديدا مفيدا ، ومثال ذلك وصفه الدقيق النادر للدبابة والكبش والسنور والبرج ذي الخرطوم ووصفه للدبابة ذات الأبراج الأربعة .

وينفرد الكاتب كذلك بوصف كثير من الأوضاع الاجتماعية والإدارية في المجتمعين الإسلامي والصليبي ، فهو يشير إلى بعض تقاليد الصليبيين في التشاور والتحكيم ، فيقول " ومن عاداتهم

(1) النوادر السلطانية ت : أحمد أبيش : 180

أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل ، وأنهم قد نصّوا على عشرة أنفس منهم وحكمّوهم ، فبأي شيء أشاروا به لا يخالفونهم" (1) .

ومن الأنظمة والقوانين التي تحدث عنها ، وكانت سارية على جنود الألمان " أن من جنى منهم جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة " (2) .

وفي السيرة أيضا عدد من الوثائق المهمة التي تلقي الضوء على العلاقات بين دولة السلطان الناصر صلاح الدين والدول المسيحية المجاورة ، ومن بينها نصوص الخطابة المرسلّة من كل من الكاغيكوس مقدم الأرمن (3) ، وإمبراطور بيزنطة (إسحاق أنجيلوس الثاني) ، إلى صلاح الدين الأيوبي ، ومن الممكن أن نضيف إلى هذه الوثائق الوصف الوافي للسفارة التي أرسلها السلطان إلى القسطنطينية ، ولكيفية إقامة الخطبة في المسجد المقام في عاصمة الدولة البيزنطية ، ويعد هذا الخبر الذي أورده ابن شداد في سيرته خبرا نادرا وطريفا ، لأن الخبر ينص على إقامة الخطبة والصلاة به للمرة الأولى عام (585هـ) مع الدعوة للخليفة الناصر العباسي في بغداد (4) .

وهكذا نجد أن ما ورد في سيرة ابن شداد ، هو روايته لمشاهداته الشخصية ، مما رآه بعينه وخبره بنفسه في إقامته الدائمة مع السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي ، ومسيره المستمر

(1) النوادر السلطانية ت : أحمد أبيش : 41

(2) المصدر السابق : 42

(3) المصدر السابق : 191

(4) المصدر السابق : 210

معه في جميع حملاته وتحركاته ومعاركه ، فهو يقدم لنا وصفا حيا رائعا لا يجارى ، حتى أن ابن شداد كان في بعض الأحيان يشارك في أعمال القتال ، وإيصال الأوامر والإشراف على تنفيذها ، فيذكر أثناء اشتباك قوات صلاح الدين مع الصليبيين المحاصرين لعكا في الثامن من شعبان من عام 585هـ " وكنت ممن دخل ، ورقى على السور ، ورمى العدو بما يسر الله تعالى من فوق السور " (1) .

ونجده يذكر أيضا عن مرافقته للسلطان في الصلاة ، وهو يتضرع لله تعالى : " وصلت إلى جانبه على العادة ، وصلى الركعتين بين الأذان والإقامة ؛ ورأيتُه ساجدا ، ودموعه تتقاطر على شيبته ، وعلى سجادته " (2) .

ثم يروي موقفا إنسانيا رائعا ، عن لقاء السلطان به بعد غيابه - أي ابن شداد - في القدس الشريف ، وعودته إليه بدمشق في 12 صفر 589هـ ، فيقول : " فدخلت عليه - رحمه الله - فقام ولقيني ملقى ما رأيت أشد من بشره فيه " رحمه الله " ولقد ضمنى إليه ، ودمعت عينه " (3) ولما مرض السلطان الناصر مرض موته ، لازمه ابن شداد مع القاضي الفاضل ، وكانا من أدنى مقربيه ، فتابعاه لحظة بلحظة ، والألم يستبد بهما . ولما دنت لحظته الأخيرة ، أعلن ابن شداد بكل أسى : " ونزلنا وكلّ منا يود فداءه بنفسه " (4) ، ثم لما انتدب لحضور غسل الجثمان عبر عن شدة ألمه قائلا : " فلم يكن لي قوة تحمل ذلك المنظر " (5) .

(1) النوادر السلطانية ت : أحمد أبيش : 167

(2) المصدر السابق : 40

(3) المصدر السابق : 357

(4) المصدر السابق : 363

(5) المصدر السابق : 363

لم يكن ابن شداد مؤرخا جامدا سلبيا بالنسبة إلى صلاح الدين أو للإفرنج ، لأنه كان محبا لصلاح الدين معجبا به جدا ، وكارها للإفرنج المحتلين ، ولكن هذا الحب لم يؤثر في صدقه ، وإنصافه لأعداء صلاح الدين ، ونجد ذلك في مثل تأريخه لانتصار صلاح الدين في "ميافيارقين" إذ يقول : " فحاصرها ، وقاتلها قتالا شديدا ، ونصب عليها مجانيق ، وكان بها رجل ، يقال له الأسد ، وما قصر في حفظها ، ولكن الأقدار لا تغلب ، فملكها السلطان " (1).

ومن أقواله اللافتة للنظر ، إنه عندما يذكر مدينة محتلة يتبعها بجملة (يسر الله فتحها) وعندما يذكر مدينة مهددة يتبعها بجملة (حفظها الله) أو (حرسها الله) ، أو بكلمة (المحروسة) .

ومن أقواله أيضا إكثاره من ذكر الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية الشريفة في أثناء كتابته . ومن الملاحظ أيضا دقته ، فقد كان يذكر في تاريخه اليوم والشهر والعام أو الشهر والسنة فقط ، وربما ذكر الوقت صباحا كان أو مساء ، أو بعد صلاة الفجر ، وهذا يعني أنه كان يسجل الأحداث ويؤرخها يوما بعد يوم ، أو ساعة بعد ساعة ، كما تبدو دقته في نقله لعبارات كاملة لصلاح الدين ، أو لغيره .

ونرى في سيرة ابن شداد مصداقية المؤلف وشفافيته ، مما يدفعه أحيانا إلى الإشادة بالعدو ومدح جرأتهم وشجاعتهم ، فيذكر عن فتح يافا واستماتة حاميتها في الدفاع عنها : " والله درهم من رجال قتال ، وما أشدهم وأعظم بأسهم ، فإنهم مع هذا كله لم يغلقوا لها بابا وما زالوا يقاتلون خارج الأبواب " (2).

(1) النوادر السلطانية ت : أحمد أبيش : 237

(2) المصدر السابق : 330

ونلاحظ من خلال سيرة ابن شداد أنّ صلاح الدين أعطى قلم ابن شداد الأهمية الكبرى ، لأنه رأى فيه من المقدرة على القيام بما يعجز عنه السيف في بعض الأحيان ، فنجده اعتمد على ابن شداد اعتمادا كبيرا في تسيير أمور البلاد .

فلقد نال ابن شداد مكانة مرموقة لدى السلطان الناصر صلاح الدين، وكان لهذه الثقة أسباب كثيرة منها : أن ابن شداد كان عوناً للسلطان ، فيما قام به من إصلاحات سياسية ، ومالية وحربية ، وفي جهاده للصليبيين⁽¹⁾ .

ومما يؤكد لنا حب السلطان صلاح الدين العميق لبهاء الدين بن شداد وأيضا القاضي الفاضل أنه أستمع لمشورتهما ، في عدم الذهاب للحج ، وتعطيلها في هذا العام ، لأن الفرنجة كانوا ما يزالون في ديار الإسلام ، فوافقهما السلطان ولم يحج .⁽²⁾

فلقد أخلص ابن شداد لصلاح الدين ودولته ، أيما إخلاص ، وخدمها بكل ما لديه من مواهب بقلمه ، وفكره ، ونصحه ، وكان لذلك أثر فيما حققه من انتصارات على الصليبيين .

وكان ابن شداد في سيرته هذه يتبع فيها الأسلوب السهل الممتنع ، ولولا وجود بعض الألفاظ الأعجمية التي كانت سائدة آنذاك مثل : (اليزك، والجاليش، والمنجنيق ، والبطسة) وغير ذلك من الألفاظ ، لكانت السيرة تبدو من حيث الأسلوب، وكأنها لكاتب معاصر تقريبا، ولنأخذ مثلا لذلك قوله في ذكر عيسى العوام "ومن نواذر هذه الوقعة أن عواما

(1) الروضتين : 2 / 241

(2) المصدر السابق : 2 / 7

مسلمًا كان يقال له : عيسى ، وكان يدخل إلى البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلا على غرة من العدو ، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو ... " (1).

وقد نال ابن شداد شهرة كبيرة ، لا لمكانة كاتبه لدى السلطان صلاح الدين ، وإنما لأسلوب المؤلف الذي تميز بالاستقامة والمباشرة ، فلقد صور شخصية السلطان الناصر تصويرًا إنسانيًا بديعًا ، يعجز أن يفعله كاتب سيرة آخر ، فهو لم يكن مأخوذًا بتقديس الأفراد وعبادة الأبطال وإنما معجبًا بالبطل المجاهد الناصر إعجاب صديق نزيه قويم الطوية ، لا يكتفم صديقه شيئًا ولا يخادعه . ولهذا ، فلا ريب أن ابن شداد لم يعمد إلى إخفاء أي حقيقة أو تحويرها .

ويزداد وضوح إشراق أسلوبه على الرغم من وجود بعض السجع اللطيف اللطيف أحيانًا . إن ابن شداد في سيرته استطاع أن يرسم لمعاصريه ولمن جاء بعدهم صورة نادرة لقائد مغوار فذ ، استطاع أن يخرج الأمة الإسلامية من الخمول والركود والخذلان والهزيمة إلى ساحات الجهاد ، والعلم ، والأدب ، فقد بلغ الغاية في الإيمان الخالص النقي ، والأخلاق والثقافة ، والسياسة ، والقيادة ، والإدارة ، والعدل ، والشجاعة والحكمة ، والكرم والمروءة والصبر والوفاء ، والإرادة والجهد ، والحسم والرقّة والنبيل وعدم اليأس ، لم تنسه قوته وانتصاراته تبعيته للخلافة العباسية ببغداد على ضعفها ، وبالإضافة إلى ذلك كله نجده ملتزمًا بعبادات العرب وكريم أخلاقهم ، ويبدو ذلك في قول ابن شداد عنه: (وكان على جميل عادة العرب ، وكريم أخلاقهم) (2) .

(1) النوادر السلطانية ت : أحمد أبيش: 206

(2) انظر :المصدر السابق : 45-50

ويذكر أيضا عدله حيث يقول : " ولقد كان - رحمه الله - عادلا ، رؤوفا ، رحيفا ، ناصرا للضعيف على القوي " (1) .

فنجد في صلاح الدين من خلال قول ابن شداد ، التواضع ، والانقياد إلى الحق ، وإرغام النفس ، مع القدرة التامة على ضبط الأمور ، وجعلها في ميزان لا يكون فيها ظالما ، ولا يكون عنده مظلوم .

وبين لنا أيضا في سيرته الشيقة كرم صلاح الدين ، يقول ابن شداد : وكان - رحمه الله - يعطي في وقت الضائقة كما يعطي في حال السعة ، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئا من المال ، حذر أن يفاجئهم مهم ، لعلمهم أنه متى علم أخرجه " (2) .

ويروي ابن شداد أن السلطان الناصر فاتح القدس ، وملك مصر والشام ، توفي فلم يخلف سوى سبعة وأربعين درهما ناصرية ، وجرم واحد صوري من الذهب (3) .

ويتجسد رأي ابن شداد في وصف شجاعة وبسالة القائد المغوار السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي من خلال قوله : " ولقد كان - رحمه الله - من عظماء الشجعان ، نقي النفس شديد البأس ، عظيم الثبات ، لا يهوله أمر ، ولقد رأيتَه - رحمه الله - مرابطا في مقابلة عدة

(1) النوادر السلطانية ، ت : أحمد أبيش : 65

(2) المصدر السابق : 47

(3) المصدر السابق : 46-47

عظيمة من الإفرنج، ونجدهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لا يزداد إلا قوة نفس وصبر، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبا على عكا، وأنا أعدّها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لا يزداد إلا قوة نفس، ولقد كان - رحمه الله - يعطي دستورا في أوائل الشتاء، ويبقى في شردمة يسيرة في مقابلة عدّتهم الكثيرة⁽¹⁾.

ولم يغفل ابن شداد عن ذكر أن صلاح الدين كان صابرا محتسبا، فيورد في سيرته قوله: "ولقد رأيته - رحمه الله - وقد جاء خبر وفاة ولد له بالغ، يسمى إسماعيل، فوقف على الكتاب ولم يُعرّف أحدا، ولم نعرف حتى سمعناه من غيره، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه"⁽²⁾.

ونجد أن عبارات ابن شداد في سيرته جاءت على سجيّتها تنساب من قلبه انسيابا، لتلامس قلوبنا دون حذر، وجاءت محكمة موجزة، ومما أثرى لغته ودلالاتها، وساعد على تكثيف عباراته، وتخصيب لغته كثرة استشهاده بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، ونجد أن توظيفه للآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، لم تأت هكذا اعتباطا أو حشوا، بل جاءت لتعمق الدلالة، وتؤكد المعنى، وتختصر الكلام، ولنضرب أمثلة على

(1) النوادر السلطانية ت: أحمد أبيش: 50

(2) المصدر السابق: 57

ذلك ، فقد استشهد ابن شداد عندما تحدث عن جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين بقوله تعالى: " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا "(1) ، وقال أيضا في أثناء حديثه عن صبر صلاح الدين واحتسابه رحمة الله ، قال تعالى " ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم "(2)

فنجد أن الاستشهاد جاء في مكانه معبرا ، ومختزلا لكثير من كلام الوصف.

وهكذا نرى أن ابن شداد يستشهد في الفقرة الواحدة ، أو في الحادثة بأكثر من شاهد قرآني أو حديث نبوي شريف ، فما من حادثة وقعت مع صلاح الدين أو معه إلا وذكر آية قرآنية أو حديثا شريفا .

وهذا يدل على أن السيرة في العصر الأيوبي ، كانت تتجلى فيها الروح الإسلامية بشكل واضح ، وقد ظهر هذا من خلال كتابات الأدباء والنقاد فيها .

ومن الملاحظ كذلك أن هذه الروح تبرز بشكل واضح بين في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، الذي يعد قمة التطور في كتابة السيرة الذاتية في العصر الأيوبي .

(1) النوادر السلطانية ت : أحمد أبيش : 53 ، سورة : العنكبوت : 68

(2) المصدر السابق : 57 ، سورة : النحل : 110

الفصل الرابع

- * حياة المؤلف وآثاره .
- * الاعتبار (سيرة أسامة بن منقذ) عرض وتحليل.
- * القيمة العلمية للسيرة .
- * الغاية من سيرة أسامة .
- * الجانب السياسي .
- * الجانب الاجتماعي .
- * الجانب الثقافي والفكري .

• حياة المؤلف وآثاره :

تشمل دراسة سيرة حياة أسامة بن منقذ ،على أهم الظروف والأحوال التي عاصرها ، كما تشمل أبرز المحطات في حياته ؛ ذلك أن حياة الفنان ، وما يتصل بها من ظروف وأحوال تنعكس في فنه بشكل من الأشكال ، وتؤثر على منظوره ، وعلى صياغته لفنه

لقد عاش أسامة بن منقذ فترة مضطربة من التاريخ ،حفلت بالحروب بين المسلمين والصليبيين ، حيث تعرضت البلاد الإسلامية إلى سلسلة من الحروب الدامية ،عرفت بالحروب الصليبية ،التي اندلعت نيرانها سنة 490هـ ، وقد جاءت هذه الحروب نتيجة لعوامل متعددة أهمها ، الحماسة الدينية التي عرفت بها أوروبا في العصور الوسطى ،والتوسع الاقتصادي ، بعد تطور النظام الإقطاعي في أوروبا ، ولم يكن نجاح الصليبيين يرجع إلى كثرة عددهم ، وإلى المساعدات التي تلقوها من الدولة البيزنطية والغرب فحسب ، بل أنه يرجع أيضا إلى تفرق المسلمين ، وتشتت كلمتهم .

• مولده :

لا خلاف في سنة ولادة أسامة بن منقذ ، بين المؤرخين والأدباء ، وهي سنة (488هـ/1095م) . فقد ذكر ابن عساكر أن أسامة قال عن نفسه : إنه ولد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة⁽¹⁾ . وكما ذكر العماد الأصفهاني : إنه لقي أسامة في دمشق سنة إحدى وسبعين يعني سنة 571هـ ، وسأله عن مولده فقال : سنة ثمان وثمانين وأربعمائة⁽²⁾ .

(1) تاريخ دمشق : 401/2

(2) معجم الأدباء : 192/5

وأخيراً يشير إلى أن أسامة قال عن نفسه : " ولدت يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربع مائة" (1).

وكنيته "أبو المظفر"، ونقل ياقوت كنية أخرى له ، وهي "أبو أسامة" (2) ، وله أيضاً كنية ثالثة في عنوان كتابه (البديع في نقد الشعر)، وهي "أبو الفوارس" والكنية الأولى أشهر (3)، ويلقب "مؤيد الدولة مجد الدين" (4) .

• نسبه :

هو أسامه بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم ابن سوار بن زياد بن مالك بن رغيب بن مكحول بن عمرو بن الحارث بن عافر بن عذرة بن زيد اللات بن ربيعة بن ثور بن كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلون بن عمران (ابن لحاف) بن قضاة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان (5).

• أسرته :

أجمع الذين كتبوا عن أسامة وأسرته أن هذه الأسرة كانت أسرة كريمة، يقول العماد الأصفهاني : " كانوا من أهل بيت المجد والحسب ، والفضل والأدب ، والسلامة والسماحة ... والإمارة والرئاسة " (6). وقال ابن خلكان عن أسامة : " من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلماهم وشجعانهم ، وقلعة شيزر معروفة بهم " (7) .

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 124

(2) معجم الأدباء : 191/5

(3) لباب الآداب: مقدمة المحقق : 20

(4) وفيات الأعيان : 196/1

(5) المصدر السابق: 195/1

(6) الخريدة : 1 / 497

(7) وفيات الأعيان : 196/1

• نشأته :

نشأ أسامة على ضفاف نهر العاصي ، وسط الطبيعة ، في ربوع شيزر⁽¹⁾ ذات الأشجار والبساتين الخضراء ، نشأة طبيعية ، فهو يقول : " ما رأيت الوالد⁽²⁾ نهاني عن قتال ، ولا ركوب خطر ، مع ما كان يرى فيّ ، وأرى من إشفاقه وإيثاره لي⁽³⁾ ". وأحب أسامة الصيد، فقد كان بارعا فيه براعته في الأدب والشعر ، فقد كانت الغابات من حول شيزر مليئة بالوحوش الضارية كالأسود والفهود والنمور⁽⁴⁾.

وجلّ رحلات صيده كانت برفقة أبيه وعمه أبي العساكر سلطان ، كما يقول أسامة متحدثا عن الصيد : " فأما ما كان بشيزر فكان مع الوالد - رحمه الله - وكان مشغوبا بالصيد لهجا به وبجميع الجوارح " .⁽⁵⁾

وبقي حبه للصيد الذي عشقه منذ نعومة أظفاره ملازما له بعد أن خرج من شيزر ، فكان يصطاد مع الملوك والأمراء الذين يحلّ بديارهم ، وفي ذلك يقول : " ومن ذلك ما حضرته مع ملك الأمراء أتاك زكي بن آق بن سنقر - رحمه الله - ومن ذلك ما حضرته بدمشق مع شهاب الدين محمود بن تاج الملوك - رحمه الله - ومن ذلك ما حضرته مع الملك العادل نور الدين أبي المظفر محمود بن أتاك - رحمه الله - ... " .⁽⁶⁾

⁽¹⁾ شيزر: قلعة تشتمل على كورة جنوب معرة النعمان إلى الشمال من مدينة حماة ، تبعد عنها حوالي 44كم (معجم البلدان : 3 / 383) .

⁽²⁾ والد أسامة بن منقذ ، أبو سلامة مرشد بن علي توفي سنة (531هـ) (وفيات الأعيان : 54/2).

⁽³⁾ الاعتبار ، ت : فليب حتي: 103

⁽⁴⁾ المصدر السابق : 144، 192

⁽⁵⁾ الاعتبار : 193

⁽⁶⁾ المصدر السابق : 191

ولقد نشأ أسامة في كنف والده وعمه سلطان الذي كان يحكم شيزر ، بعد أن تنازل له أخوه
والد أسامة . فاستخلص سلطان أسامة من بين الأخوة الأربعة ، وعطف عليه ورعاه ، ودرّبه
على الفنون الحربية ، وكان يختبر حضور ذهنه في ساعة القتال (1) . وأنشأه كمن يريد أن
يجعل منه خلفا له . ولم يكن له ولد ذكر في ذلك الحين .

أمّا بعد أن رزق العم ولدا ، فتغيرت معاملته لابن أخيه " أسامة " وأخذ الحسد يعمل
فيه، وكان ولده صغيرا ، مما جعل أسامة يغادر شيزر مؤقتا (523هـ) لأن أسامة كان أبيا
لا يرضى الذل أو الهوان ، ويقول في ذلك (2) :

لا تلزمني بالهوان وحمله
إن احتمال الهون ثقل مرهق
فضل الأقارب برهم وحنوهم
فإذا جفوني فالأبعد أرفق

ويعود إليها بعد بضع سنين عام (532هـ) بسبب الشوق والحنين إلى الأهل . وكانت
الإمارة لعمه ، وانقلب العم على أولاد أخيه ، وبأدهم بما يسوؤهم حتى أخرجهم نهائيا من
شيزر ، ولم يكن لهم ذنب غير الإقدام والشجاعة ، إذ خرج أسامة يوما لاصطياد أسد كان قد
سمع بوجوده قرب شيزر ، ثم عاد إلى قومه ورأس الأسد بيده بعد أن اصطاده وحده (3) .

ويذكر أسامة أن جدته حذرتة من مغبة هذا العمل الذي سيزيد قلب عمه وحشة ونفورا
منه (4) .

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 100

(2) ديوان أسامة : 28

(3) الاعتبار : 126

(4) المصدر السابق : 126

• شيوخه :

كان والده الأمير مرشد بن علي معلمه الأول ، ومثله الأعلى ، وهو الأب العالم الأديب الزاهد الذي اهتم بتنشئة أبنائه تنشئة دينية ، إذ كان يطلب منهم قراءة بعض آيات القرآن الكريم ، وهم في رحلات الصيد (1).

كما يذكر أسامة أن والده أراده ذات يوم أن يهتم بعلم النجوم ، إذ كان عارفا بها فيريه النجوم ويعرفه أسماءها (2).

أما العلوم الأخرى التي تلقاها أسامة فهي : علم النحو الذي تعلمه ما يقرب من عشر سنين من الشيخ العالم أبي عبدالله الطليطلي (3) ، وقد وصفه أسامة بأنه سيبيويه زمانه ، وكان متولي دار العلم بطرابلس ، فلما أخذها الإفرنج دعاه والد أسامة وعمه إلى شيزر فأقام بها مدة ، ثم رحل إلى مصر وتوفي بها (4).

وكان يؤدبه الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة الكفرطابي المتوفى سنة 503هـ (5) ، وروى عن أبي عبد الله محمد بن شافع بن الحسين بن العرار سمعه بشيزر ، وأبي بكر محمد بن مخلد بن عبد الله بن مخلد التميمي الإشبيلي سمعه بمصر وغيرهم الكثير . وقد سُجِّلَت سيرة حياته في مصادر كثيرة .

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 201

(2) المصدر السابق : 56

(3) هو أبو عبدالله الطليطلي النحوي من سكان شيزر ، درس عليه ابن المنيرة العالم الجليل وغيره ، سماه أسامة بسيبيويه زمانه وعصره في النحو . (الخريدة 1/573 - 579) .

(4) الاعتبار : 208

(5) ابن المنيرة : أبو عبدالله محمد بن يوسف من أهل كفر طاب نزل حصن شيزر ، نقض كثيرا من مسائل النحويين ونقد الشعر وغريب القرآن ، مات في رمضان سنة 503هـ . (بغية الوعاة 124) .

• رأيه وحكمته :

ولد أسامة أميرا يجالس الأمراء والفضلاء ، ويستمع إلى آرائهم ومشاوراتهم ، ورزق والدا لا يألوا جهدا في تصويب آرائه وأقواله ، ثم أنه جالس الوزراء بدمشق ومصر ، وعاشر السلاطين ، فصارت حكمته سديدة ، ورأيه مسموعا .

فقد كان أسامة ذا رأي حربي موثوق لطول ما خاض غمار الحروب ، حيث كان مطلع شبابه قائدا حربيا في شيزر ، ولقد نصح ذات يوم والي عسقلان بعدم الخروج من الأسوار لقتال الروم ، ولكنه لم يستجب لكلامه حتى وقعت وقائع وهزائم جعلت أهل عسقلان يقولون : " كان ابن منقذ أخبر منا ، قال لنا : ارجعوا ، ما فعلنا حتى انهزمنا وافتضحنا " (1) .

فقد ذاع صيته وانتشر ذكره حتى صار السلاطين والولاة يبعثون في طلبه من كل مكان .

• شجاعته :

كان أسامة جسورا منذ الصبا لا يهاب الموت ، يلقي بنفسه في المهالك ويرخصها حين تغلو النفوس ، يقول أسامة : " فلما رأيت الإفرنج قد وصلوا إلى الناس هان عليّ الموت " (2) .

فقد خاض أسامة غمار الحروب ، ولاطم أمواجهها ، وتتبع الوحوش وقائلها .

(1) الاعتبار، ت : فيليب حتي : 16

(2) المصدر السابق : 41

• علاقة أسامة بصلاح الدين الأيوبي :

كان صلاح الدين الأيوبي يطلب مشورته ، عندما عملا معا في بلاط نور الدين ، حتى اتخذ صلاح الدين من ابنه مرهف مرافقا وجليسا له⁽¹⁾ . ويسجل أسامة في كتاب (الاعتبار) فضل صلاح الدين ويمدحه ، فيورد أسامه قائلا في سيرته " أعجزني وهن السنين ، عن خدمة السلاطين فهجرت مغشى أبوابهم ، وقطعت أسبابي من أسبابهم ، واستقلت من خدمتهم ولزمت داري ، فناداني إليه ، الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين جامع كلمة الإيمان ، رافع علم العدل والإحسان ، محيي دولة أمير المؤمنين ، أبو المظفر يوسف بن أيوب جمل الله الإسلام والمسلمين بطول بقائه، وأيدهم بماضي سيوفهم وآرائه... فاستنقذني من أنياب النوائب برأيه الجميل ، وحملني إلى بابه العالي بإنعامه الغامر الجزيل ، وجير ماهاضه الزمان مني ، ونفق كرمه ما كسد عليّ من سواه من علو سنيّ ... فعطاياه تطرقني وأنا راقد .⁽²⁾

فهذا يدل على العلاقة القوية التي كانت تربط أسامة بن منقذ بالسلطان صلاح الدين الأيوبي . ويرى الدكتور قاسم السامرائي ، أن أسامة إنما كتب سيرته (الاعتبار) لصلاح الدين الأيوبي، وأهداها له في مقدمته التي ضاعت مع ما ضاع من أوله ، ثم يقول : " بل لعل أسامة أراد من كتابه أن ينبه السلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله ، إلى أن الموت لن يقدمه ركوب الخطر ... ليستثير عزم صلاح الدين حتى يجدّ في جهاد الإفرنج " ⁽³⁾ .

(1) انظر الفصل الأول من الدراسة : 26

(2) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 164 - 165

(3) الاعتبار ، تحقيق السامرائي : 20 - 21 .

• آثاره :

كتاب الاعتبار : موضوع دراستنا في هذا الفصل .

البديع في نقد الشعر ، لباب الألباب ، العصا⁽¹⁾ ، ديوان شعره ، مختصر مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه⁽²⁾ ، المنازل والديار ، أخبار النساء⁽³⁾ ، الشيب والشباب⁽⁴⁾ ، القضاء⁽⁵⁾ ذيل يتيمة الدهر⁽⁷⁾ ، تاريخ القلوع والحصون⁽⁸⁾، أزهار الأنهار⁽¹⁰⁾ ، تاريخ أيامه⁽¹¹⁾ .

• وفاته :

وأخيرا قدر لأسامة أن يحيا حياة هائلة في سنواته الأخيرة، بعد كل ما ذاق من مرّ وعذاب فكانت دمشق مسك الختام، وقد أحسّ بذلك إذ قال مادحا السلطان صلاح الدين الأيوبي:

حمدت على طول عمري المشيبا
وإن كنت أكثرت فيه الذنوبا
لأنني حبيت إلى أن لقيت
بعد العدو صديقا حبيبا⁽¹²⁾

وجاءت المنية في الثالث والعشرين من رمضان سنة 589هـ، ودفن شرقي جبل قاسيون على نهر يزيد الشمالي⁽¹³⁾ .

(1) مقدمة الديوان : 8

(2) المصدر السابق : 8

(3) مقدمة الاعتبار : ك

(4) لباب الألباب : 277

(5) المصدر السابق : 26

(7) المصدر السابق : 26

(8) ذكره حتى في مقدمته الاعتبار : ق

(10) ذكره صاحب الظنون ، كشف الظنون : 72/1

(11) ذكره ياقوت في معجمه ، معجم الأديباء : 208/5

(12) الروضتين : 2 / 433

(13) وفيات الأعيان : 99/1 .

• الاعتبار (سيرة أسامة بن منقذ).....(عرض و تحليل).

يعد كتاب " الاعتبار "لأسامة بن منقذ من أهم السير الذاتية في الأدب العربي القديم وأنضجها.

ويقع الكتاب في الأصل في ثلاثة أقسام : (1)

فالقسم الأول الذي يحفل بأخبار الوقعات والمصافات والحروب , هو أغناها وأكثرها قيمة وأجدرها بالمراجعة .

والقسم الثاني يتعلق بأخبار الصيد والقنص والجوارح، وهو قسم حافل مثير أيضاً، حكى فيه أسامة حكايات مشاهد الصيد التي حضرها .

والقسم الثالث ملحق الكتاب ، فيه طرف من أخبار الصالحين ، ألحقت بالكتاب إلحاقاً .

ويرى الأشر أن وقوع " الملحق ، في الطبعة الأصل ، بين أخبار القسم الأول والقسم الثاني من السيرة . وهو وضع لا يقره المنطق، وينكره كلام أسامة نفسه في أول الملحق ، وهو صريح في النص على إلحاقه بالسيرة . ونحسب أن الناسخ الذي نسخ السيرة ، في الأصل أخطأ فيه ، أو استهان باختيار موضعه منها " (2)

ويخالفه الرأي الدكتور سعود عبد الجابر فيما ذهب إليه ، ويرى أنه للوهلة الأولى تبدو أقسام السيرة مفككة ، ولا روابط بين أجزاءها ولكن هناك صلة وثيقة تربط بينها ، إذ أنها جميعاً تدور حول شخصية الكاتب بالإضافة إلى احتوائها على العظة والعبرة التي توحد السيرة (3).

(1) من كتاب الاعتبار، ت : فيليب حتي :10-11

(2) المصدر السابق : 11

(3) المجلة الأردنية للعلوم التطبيقية، صورة أسامة بن منقذ من خلال سيرته الذاتية:114

ويبدو أن أسامة كتب سيرته هذه وقد تجاوز التسعين من عمره ، ويفهم هذا من قوله في سيرته :«قلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر ولا يؤخره الحذر ، ففي بقائي أوضح معتبر ، فكم لقيت من الأهوال ، وتقمت المخاوف والمخاطر ، ولاقيت الفرسان، وقتلت الأسود ، وضربت بالسيوف ، وطعنت بالرماح وجرحت بالسهام ، وأنا من الأجل في حصن حصين إلى أن بلغت التسعين»⁽¹⁾ .

فأخذ أسامة - وقد بلغ من الكبر عتياً- يسترجع ذكريات حياته الحافلة بالتجارب والمغامرات والبطولات من أجل استخلاص العبرة منها ، ومن هنا جاءت تسمية سيرته بـ " الاعتبار " .
وقد صور أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار صور البطولة والفروسية أمام الصليبيين، وصور كذلك جوانب عديدة من حياة المسلمين في ذلك العصر ، ولم يكتف بذلك، بل تعداه إلى تصوير حياة الصليبيين أنفسهم ، وكل ذلك جاء بدقة وأمانة قل مثيلها (تعكس شخصية الفارس الحقيقي الذي ينصف حتى أعداءه) .

والسيرة تعد وثيقة تاريخية واجتماعية ونفسية تعكس حقبة من الزمن تداخلت فيها حضارتان، فرسمت السيرة صورة للمجتمع في تلك الفترة ووصف أحوال الحياة والناس والعادات والتقاليد، ورسمت كذلك صورة الصراع بين المسلمين والصليبيين، فبدأت السيرة وثيقة حية من وثائق الحروب الصليبية ، فأسامة لم يكن يعبأ بأخبار المعارك والتأريخ لها ، على نحو ما نعرف في الكتب التي أرخت لها ، ولكنه كان يصور حياة الناس التي تجري تحت سطح هذه الأحداث الذاتية ، ويقف عند الصور العميقة المؤثرة منها ، وما كان يقع لهم داخل بيوتهم ، وفي مواطن جدهم ولهوهم ، وما كانوا يقولونه لأنفسهم ، وهم يواجهون الموت

(1) الاعتبار، ت : فيليب حتي : 163

ويرى بعض النقاد أن امتياز سيرة أسامة الذاتية بشيء من التاريخ ، وعلم النفس ، والاجتماع والبيئة ، وطبائع الحيوان " لم يأت ضمن الإطار الذي تتداخل فيه السيرة الذاتية مع غيرها من الفنون ، لأن السيرة الذاتية عندما تتداخل مع التاريخ ، تطوع الخبر التاريخي بحيث يدخل في نسيجها الفني ، ويفقد طابعه التاريخي ، وكذلك يحدث في الفنون الأخرى التي تتداخل معها ، وهذا الشيء لم يحدث في سيرة أسامة ، حيث جاءت الأخبار المتعلقة بسيرته على شكل حكايات قصيرة ، تتخللها حكايات أخرى عن العرب ، والصليبيين وطبائعهم وغير ذلك من الحكايات"(1) .

وهذا الكلام صحيح إلى حد كبير ، ولكن لا يمكن لكاتب السيرة الذاتية أن ينفصل عن الأحداث والبيئة الاجتماعية التي عاشها خاصة إذا ما كان يعيش في خضم هذه الأحداث ، بل هو جزء منها يساهم في صنعها ، كما حدث مع أسامة .

ومع أن الصدق الخالص في السيرة مستحيل في رأي الدكتور حسن عباس إلا عند أسامة فيقول : " فإن من يطالع كتاب الاعتبار يدرك صدق لهجة صاحبه في سرد قصة حياته "(2) .

• القيمة العلمية للسيرة :

تكمن أهمية السيرة في أنها تعد من أوثق المصادر التي كتبت عن مرحلة الصراع بين المسلمين والصليبيين ، لأنه عدّ شاهداً عياناً ، كتب أولاً بأول عن كل ما رآه ، أو سمع به .

(1) من كتاب الاعتبار، ت : فيليب حتي : 9

(2) أسامة بن منقذ : 227/2

فقد قدم لنا أسامة بن منقذ في سيرته مادة علمية ذات قيمة مهمة عن شتى جوانب الحياة في بلاد الشام، في مرحلة مهمة من مراحل التاريخ الإسلامي، من خلال الروايات الشفوية التي دونها في سيرته.

وقد فاقت هذه المادة العلمية، التي قدمها لنا أسامة في أهميتها ما قد نعثر عليه في كتابات المؤرخين والرحالة المعاصرين، الذين أغفلوا جوانب عديدة طرقها أسامة، إذ أنه يتحدث عن أشياء قلّ أن نجد حديثاً عنها في غيره من الكتب.

• الغاية من سيرة أسامة :

ألف أسامة بن منقذ سيرته (الاعتبار) بعد أن تجاوز التسعين من عمره ، فاستعاد في ذاكرته أيام شبابه وقوته ، وكهولته وشيوخته ، ورأى أن في هذه الحياة عظات وعبر جديرة بأن تسجل وتدون ، فألف هذه السيرة، وجعلها ترجمة ذاتية له ، وصور فيها سيرته وأعماله وفروسيته ، وألقى بها ضوءاً ساطعاً على أحداث عصره وحياة الناس في بلاد الشام ومصر والعراق في ذلك العصر ، وصور المجتمع العربي الإسلامي في هذه البيئات الثلاث تصويراً دقيقاً .

فالسيرة سفر حافل بأحداث تلك الفترة الصعبة من أيام الحروب الصليبية . وفيها طرائف من الحكايات والقصص والنوادر ، وفيها تصوير للعادات والأخلاق والقيم المنتشرة في المجتمع آنذاك ، وفيها أيضاً تصوير لطبائع الحيوانات وغرائزها.

وتتأتى أهمية هذه السيرة بالإضافة إلى ذلك أن أسامة بن منقذ لم يقف في سيرته عند الأحداث السياسية والشخصيات الهامة المؤثرة في المجتمع فقط ، بل صور كثيراً من الشخصيات البسيطة التي كان لها دور بارز في مجريات حياته ، ولكن للأسف لم تصل إلينا السيرة كاملة، ففي الجزء الذي وصل إلينا لم يذكر أسامة الغاية من تأليف السيرة ، ولا ندري إذا ذكر ذلك

في الجزء المفقود ، لأن من عادة أسامة كما رأينا في معظم مؤلفاته المطبوعة أن يشير في المقدمة إلى هدفه وغايته ، ولقد أشار بوضوح إلى غايته من تأليف الكتاب في مؤلف آخر له إذ قال في كتابه لباب الآداب : " قد كنت ابن خمس عشرة سنة إلى أن تجاوزت التسعين وما نالني فيه من الجراح والمكاره ، وذكرت ما شاهدته من إقدام الرجال ، وعجائب تصرف الآجال " (1) . وهو يرى أن حياته الحافلة بالأهوال فيها أوفى وأبلغ عبرة لكل من أراد أن يعتبر ، فهو يقول " في بقائي أوضح معتبر ، فكم لقيت من الأهوال ، وتقحمت المخاوف والأخطار ، ولاقيت الفرسان ، وقتلت الأسود ، وضربت بالسيوف ، وطعنت بالرماح وجرحت بالسهام ، وأنا من الأجل في حصن حصين ، إلى أن بلغت تمام التسعين " (2) . ويخلص أسامة في سيرة حياته إلى فلسفة واضحة ، مفادها أن الحياة بكل ما فيها من سعادة وشقاء وقوة وضعف ما هي إلا عبرة وعظة ، وأن حياة الإنسان بيد الله وأن العمر مؤقت مقدر وأن الموت " لا يقدمه ركوب الخطر ولا يؤخره شدة الحذر " (3) ، وأن ركوب أخطار الحروب ، لا ينقص مدة الأجل المكتوب " (4) .

وهو يؤكد أن "النصر في الحروب من الله تبارك وتعالى ، لا بترتيب وتدبير ولا بكثرة نفير ولا نصير" (5) ، ولعله أراد في قوله هذا أن يستثير عزيمة المسلمين على الجهاد والقتال والتصدي للصليبيين ، فالعمر مقدر من الله لا يتقدم ولا يتأخر ، مهما كانت الأخطار والمحن ويؤكد أسامة أن الإنسان ما دام قدره وعمره بيد ربه فمن العار عليه أن يحجم عن الأخطار طلبا للسلامة وطول الأجل وهذه آراء لا يلقها الرجل جزافا ، وإنما خبرها وعاشها بنفسه

(1) لباب الأبواب : 226

(2) الاعتبار ، ت : فيليب حتي: 162-163.

(3) المصدر السابق : 211

(4) المصدر السابق : 209

(5) المصدر السابق : 190

فجاءت صورة صادقة لحياته التي أمضاها في الجهاد والقتال . ونرى أن وحدة الموضوع التي هي من أهم عناصر السيرة الذاتية تتمثل في هذه الفلسفة والعبرة التي تربط بين أجزاء الكتاب وأحداثه ربطا محكما ، وهو يورد العبرة لنفسه ولغيره . وهو يكتب سيرة حياته على طريقة التذكر ويشير إلى ذلك بكل وضوح بقوله : " قد ذكرت من أهوال الحروب ، وما شاهدته من الوقعات والمصافات والأخطار ما حضرني ذكره ، ولم ينسينه الزمان مره ، فإن العمر طال ولزمت الانفراد والاعتزال ، والنسيان من إرث متقدم من أبنينا آدم عليه السلام " (1).

ولقد كان انتقائيا في ذكرياته ، فهو ينتقي المشاهد والصور التي يعرضها انتقاء ولا شك أن " واجب كاتب السيرة أن يعرف كل شيء ولكن لا يستعمل كل ما يعرفه ، كثير من الوثائق تطابق الواحدة الأخرى ، فعلى كاتب السيرة أن تكون لديه الشجاعة أن ينتقي وتكون لديه الحكمة أن ينتقي ، إن غرلة المادة أصعب جزء في مهنته " (2) .

كاتب السيرة الذاتية يتطلع إلى الارتداء إلى مركز وجوده بعد إحساسه بالغربة والوحدة .فهو إذا ضرب من التوافق بين العزلة الباطنة ، والعالم الخارجي ،فنحن لا نكتب السيرة لمجرد الخروج من ذواتنا ، وإنما من أجل زيادة إحساسنا بالوجود ،وتقوية شعورنا بذواتنا .

الأم قد يكون دافعا إلى كتابة السيرة الذاتية ، فالكاتب يكتب سيرته الذاتية ليخلع على حياته معنى ، ونحسب أن ذلك توفر بأسامة ، فكتاب الاعتبار بالنسبة لأسامة هو رصد إحساسنا بالتفوق الحضاري العام في العصور الوسطى ، وذلك من خلال التفوق السياسي والاجتماعي والثقافي والعسكري ، وتفوق التربية والعمل ، وتفوق عاداتنا بديننا وأرضنا .

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتى : 191

(2) كبار الكتاب كيف يكتبون : 183

• الجانب السياسي :

أسامة بن منقذ أحد أبطال المسلمين في الحروب الصليبية ، ببلاده الشام ، وقد زار مصر والموصل، وشارك في أحداثها السياسية، وتولى أعمالاً كثيرة لأمرأء مختلفين ، كان آخرهم صلاح الدين الأيوبي .

اشترك في حرب الصليبيين ، وخاض ضدهم معارك حامية ، وكان حين تضع الحرب أوزارها يعاشرهم ، ويرقب حياتهم ، ويسجل ملاحظات مختلفة عن سياستهم ، ومعاشرهم ، ومعارفهم .

فأسامة إذاً شخصية فذة من شخصيات الحروب الصليبية ، فلم يكن فقط شاعراً وأديباً ، بل كان فارساً شجاعاً ، سياسياً محنكاً ، فقد لقي الاحترام من المسلمين والصليبيين على السواء، فصور في سيرته "الاعتبار" الأحوال السياسية التي عاشها في الشام ومصر والعراق ، بثنتى أنواعها ، وكيف كان موقفه منها ، فقد عدت سيرته "الاعتبار" وثيقة وثقت الأحداث السياسية ، والعسكرية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والفكرية في عصره ، بكل أمانة وصدق من خلال رسم صورة الصراع بين المسلمين والصليبيين ، فبدأت السيرة وثيقة حيّة من وثائق الحروب الصليبية .

امتدح أسامة بن منقذ حسن السياسة في تدبير أمور الرعية ، لما تحقّقه من حياة أمانة ، وعيش رغيد للأفراد والجماعة . وقد افتتح حديثه عنها بقوله : " وفي حسن السياسة ربح كثير من عمارة البلاد " (1) ، ثم ساق قصة أكدّ فيها تقريره هذا مبيناً فيها كيف حمى حسام الدولة ابن دلماج (2) بلده بدليس من الحروب الطاحنة بفضل سياسته، إذ يقول أسامة : " ورجعنا وبلده

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي: 88

(2) هو صاحب (بدليس) وهي بلدة قريبة من أرمينية . معجم البلدان (358/1) .

بحسن سياسته عامر ما دخل عليه خلل⁽¹⁾ ، ثم ساق أسامة قصة أخرى أكد من خلالها ما ذهب إليه ، وهو أن نجم الدين مالك بن سالم⁽²⁾ حفظ بلاده من إغارة جوسلين عليها بفضل حنكته وسياسته فقال : " ولولا سياسة نجم الدولة كان خرب بلده "⁽³⁾ .

ولقد كان بنو منقذ من أمهر الحكام في ممارسة السياسة في الحرب والسلم ، حتى كان بعض الحكام المسلمين يطلبونهم للإصلاح بينهم وبين الإفرنج لكياستهم السياسية ، يقول أسامة : " كنت أتردد إلى ملوك الإفرنج في الصلح بينهم وبين جمال الدين محمد بن تاج الملوك⁽⁴⁾ رحمه الله ليد كانت للوالد رحمه الله على بغدوين الملك ... "⁽⁵⁾ ، ويؤكد أسامة تلك السياسة التي تقوم على التوازن بين الحرب والسلام، يقول : " ثم ملك بغدوين أنطاكية، وكان لأبي وعمي رحمهما الله ، عليه جميل كثير ، حيث كان أسره نور الدولة بلك⁽⁶⁾ رحمه الله ، وصار بعد قتل بلك إلى حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي⁽⁷⁾ ، فحمله إلينا ليتوسط أبي وعمي رحمهما الله بيعة فأحسننا إليه ، فلما مات كانت لصاحب أنطاكية علينا قطيعة سامحنا بها وصار أمرنا في أنطاكية نافذا "⁽⁸⁾ .

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 88

(2) هو نجم الدولة مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر، وتقع على الفرات بالقرب من مدينة الرقة (زبدة الحلب : 170/2) .

(3) الاعتبار : 89

(4) هو محمد بن تاج الملوك بوري بن طغتكين أمير دمشق ، قتلته أمه ، لأنه أراد تسليم دمشق للفرنجة سنة 534هـ (وفيات الأعيان : 296/1) .

(5) الاعتبار : 80 ، بغدوين : هو بلدوين دي بوج ، ملك القدس وإنطاكية ، أسره نور الدين بلك ، ثم صار في عهدة حسام الدين تمرتاش ، وتوسط في بيعه والد أسامة . (تاريخ الحروب الصليبية : 183/2-185) .

(6) نور الدولة بلك بن بهرام بن أرتق ، ابن أخي إيلغازي بن أرتق صاحب ماردين قتل سنة 518هـ في حصار منبج (الكامل : 619/10)

(7) هو حسام الدين بن تمرتاش بن نجم الدين إيلغازي حكم ماردين بعد وفاة أبيه ومات سنة 549هـ أنظر : (ذيل دمشق : 208) .

(8) الاعتبار : 121-120

فالقائمة السياسية لسيرة أسامة بن منقذ ، تظهر من كونه أحد المشاركين في صنع العديد من الأحداث السياسية والحربية ، في مرحلة الصراع الإسلامي في بلاد الشام ، ومصر ، وبلاد الرافدين ، فقد كان ابن منقذ طرفا رئيسيا ، وشاهد عيان على الأحداث السياسية والحربية المهمة التي حدثت في مصر وبلاد الشام ، وحتى العراق في زمانه .

ف نجد أسامة يستهل سيرته ، بمعركة شهداها بين المسلمين والصليبيين، وهي معركة "قنسرين" ثم يحدثنا عن محاولة الروم والإفرنج حصار شيزر ، وفي هذا الحصار نستدل على حنكة أسامة السياسية ، عندما أشار على صلاح الدين الغسياني⁽¹⁾ أن لا يسلمها إلى أتاك بعد أن تخلى عنها شهاب الدين أحمد، وأرسل إلى صلاح الدين يقول له : (أرسل من يتولى بلدك) أي شيزر ، وعلل أسامه رأيه بأن أتاك سيقول لصلاح الدين ،بأنك أخذتها لحما ورميتها لي عظما ، فأشار أسامة على صلاح الدين أن يستلمها هو ويجلس بها (أي أسامة) فإن قتلنا كان بآجالنا ، وأنت يا صلاح الدين معذور ، فقال له صلاح الدين : " ما قال لي هذا القول أحد غيرك ، وأنتى على أسامة وحنكته وبراعته في تسيير الأمور (2) " .

وينتقل أسامة سريعا إلى إقامته في دمشق بعد فراقه لعمه * ، وشهد فيها حروب عدة وأشار على قائدها ، بما يمتلك من حكمة ، وحنكة في الحروب ، وسياستها ، فأعجب

(1) صلاح الدين بن محمد بن أيوب الغسياني، حاجب أتاك زنكي كان أكبر أمير عنده ذا مكر وحيل توفي (552 هـ) . (وفيات الأعيان : 327/2).

(2) انظر : الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 2

* تم تحليل سبب رحيل أسامة في الحديث عن حياة أسامة بن منقذ ص : 98.

به شهاب الدين محمود⁽¹⁾ ، وأجزل له العطية والإقطاع ، وميزه منه بالتقريب والإكرام ، وأقام بها أسامة ثمانين سنين⁽²⁾ .

ثم فارقها إلى مصر ، وأقام بها عشر سنوات ، وكانت حينئذ مسرحاً للفتن ، والمكائد والمفاسد ، وقد استقبله الخليفة الحافظ⁽³⁾ ، استقبالا حسنا ، وأكرم وفادته ، يقول أسامة : "كان

وصولي إلى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمس مائة"⁽⁴⁾ فأقرتني الحافظ لدين الله ، ساعة وصولي ، فخلع عليّ بين يديه ، ودفع لي تخت ثياب ومائة دينار ، وخولني دخول الحمام ، وأنزلني في دار من دور الأفضل ابن أمير الجيوش⁽⁵⁾ ، في غاية الحسن ... وأقامت بها مدة إقامة في إكرام واحترام وإنعام متواصل وإقطاع زاج⁽⁶⁾ . فصادف وصوله حدوث فتنة بين الفرق العسكرية الفاطمية ، فكان في بيته هو وأهله كما يقول : " نبيت ونصبح بالسلاح خوفا من ميلهم علينا " ⁽⁷⁾ .

وهكذا فكانت هذه الفتنة شديدة ، وأن مصر كانت تعيش وقتها مرحلة من الفوضى السياسية بسبب كثرة الخصومات والمؤامرات التي كانت تدبر في هذا البلاط .

(1) هو محمود بن قراجا ، يلقب بشهاب الدين صاحب حماة ، قتل بسهم مسموم سنة 517هـ . الكامل : 618/10 .

(2) الاعتبار : 4

(3) هو عبد المجيد بن محمد المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بأمر الله العلوي الفاطمي ، توفي في تشرين الأول سنة 1149 . (انظر الأعلام : 1 / 318) .

(4) 30 تشرين الثاني سنة 1144 .

(5) شاهنشاه ، بدر الجمالي ، صاحب الديار المصرية ، ولي بعد أبيه ، كانت ولايته 28 سنة ، وهو مدير دولة الفاطميين ، وتوفي سنة 515هـ . (البداية والنهاية : 203/12) ، (الكامل : 11 / 589) .

(6) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 6

(7) المصدر السابق : 7

فقد رسم لنا أسامة بن منقذ في سيرته صورة بئسة للحياة السياسية في القاهرة ، فقد ظهر فيها الفساد ، وتطاحن الجنود والأمرء ، وتعدد الجماعات المسلحة ، بعضها من برقة ، وبعضها مغاربة ، وفرقة ثالثة من السودان ، وبعضها من الترك ، مضافا إليهم العربان ، يتقوى كل أمير بإحدى الفرق ، مع انصراف الأهالي إلى الزوايا ، وانتعاش الحركة الصوفية ، واهتزت القيم ، وزلزلت العروش ، مما أفسح المجال للمتربصين (الصليبيين) أن يجتاحوا البلاد الإسلامية من غير تردد ، لما رأوه من صراع للحكام والأمرء والوزراء على الحكم وملك الأمر . وهكذا فقد استمر الصراع والتناحر على السلطة والمؤامرات التي تدبر بليلى ، والأمرء يتنازعون قيادة فرق الجيش ، والخليفة يخرج للقنص أو للعبادة ، وأسامة معه يموت خليفة ، ويأتي خليفة ، يموت الحافظ ، ويأتي الظافر ، والفرقة قائمة ، كما سيأتي معنا من أحوال سياسية جعلنا أسامة نعيشها في سيرته .

ولم يلبث أن توفي الحافظ بعد يومين من الفتنة لمرض ألمَّ به ، ويقول أسامة في هذا : " وكان مريضا ، فمات ، رحمه الله ، بعد يومين ، وما انتطح فيها عنزان " (1) . فتولى مكانه ابنه الظافر بأمر الله (2) ، لتحدث فتنة أخرى تمثلت في الصراع الوزاري بين الوزير الفاطمي نجم الدين بن مصال (3) ، والأمير أبو الحسن بن السلار (4) ، وقد روى لنا أسامة تفاصيل هذا الصراع بدقة متناهية ، كونه مرافقا لابن السلار الذي كان غالبا مايستشيره في أحلك الظروف وأصعبها ، فكان يستدعيه في الليل ، ويتشاور هو وأسامة ، في الأحداث

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 7

(2) هو إسماعيل بن عبد المجيد الحافظ بن محمد المستنصر بن الظافر ، وفي أيامه أخذت عسقلان ، فظهر الخلل في الدولة ، قتل سنة 549هـ . (الأعلام : 318/1) .

(3) هو سليم بن محمد بن مصال ، نجم الدين ، أبو الفتح ، استوزره الظافر العبيدي صاحب مصر ، قتله العادل بن السلار سنة 544هـ . (ابن خلكان : 416/3 - 417) .

(4) هو الأمير سيف الدين أبو الحسن علي بن السلار ، خلع عليه الظافر خلع الوزارة ، ولقبه الملك العادل وتولى الأمور ، كانت ولايته الإسكندرية وبحيرة . (وفيات الأعيان : 417/3) .

التي تدور حوله ، ويأخذ برأي أسامة . يقول أسامة في ذلك : " ... وبلغ الخبر إلى ابن السلار فاستدعاني بالليل ، وأنا معه في الدار ، وقال : " هؤلاء الكلاب (يعني جند مصر) قد شغلوا الأمير (يعني عباسا⁽¹⁾) بالفوارغ حتى عدا إليه قوم من لواته سباحة ، فانهمزوا عنه ودخل بعضهم إلى بيوتهم بالقاهرة والأمير موافقهم " ، قلت (أي أسامة) : " يا مولاي ، نركب إليهم في سحر ، وما يضحى النهار إلا وقد فرغنا منهم ، إن شاء الله تعالى " ، قال ابن السلار : " صواب ، أبكر في ركوبك " يقول أسامة : فخرجنا إليهم ، فلم يسلم منهم إلا من سبحت فرسه في النيل " (2).

تحدث أسامة عن المعركة التي حدثت بين ابن السلار وابن مصال ، ورأينا في ذلك أن أسامة كان له دور بارز في تسيير الأمور وفق ما يريد ، وكيف أشار على أبي الحسن بن السلار لما لديه من خبرة عسكرية ، وحنكة سياسية ، وحكمة عالية .

ويذكر لنا أسامة دوره البارز في الاتحاد الفاطمي الزنكي ، فيبدو أن الضغط الصليبي على مناطق النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ، والذي استمر أكثر من أربعة عقود (491-533هـ) دون أن تستطيع الدولة الفاطمية إيقافه ، هو ما دفع الوزير الفاطمي ، رضوان بن الولخي⁽³⁾

إلى التفكير بإقامة تعاون فاطمي زنكي وتوحيد الدولتين الإسلاميتين العباسية والفاطمية ، على الرغم فيما بينهما من عدا ، لمواجهة الخطر المشترك ، وقد طلب من الأمير أسامة بن منقذ

(1) عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن باديس (الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 18) .

(2) الاعتبار : 8

(3) هو الأفضل بن الولخي ، كان وزيرا للحافظ ، قام عليه الحافظ فهرب إلى الشام ، فنهبت داره ، ثم عاد إلى القاهرة ، فسجن وهرب من سجنه ، ثم قتل سنة 531هـ . (الكامل : 11 / 48 - 49) .

وهو شخصية تحظى باهتمام الطرفين ، أن يرتب لقاء بينه وبين عماد الدين زنكي للتباحث في هذا الشأن (1).

إذا هذا يدلّ على أن أسامة يتمتع بشخصية سياسية عسكرية تحظى باحترام الجميع له. وإذا كان اللقاء الذي تقرر عقده سنة 533هـ ، في بعلبك لم يتحقق (2). فقد بذلت محاولة أخرى بالتعاون أيضا مع أسامة بن منقذ بعد ثلاث عشرة سنة (546هـ) عندما وضع الوزير الفاطمي ابن السلار (544هـ - 548هـ) ، مشروعا لاستعادة المدن الفاطمية الساحلية التي كان الصليبيون قد استولوا عليها ، يتضمن تعاونا فاطميا زنكيا في إطار الخطوات التالية التي كُلف بنقلها الأمير أسامة بن منقذ إلى نور الدين زنكي ، وهي :

- أن يقوم أسطول فاطمي بالتوجه نحو المواقع الصليبية الساحلية ومهاجمتها .
- يقوم نور الدين زنكي في ذات الوقت بمهاجمة غزة (3).
- وضع مبلغ من المال قدره ستة آلاف دينار مصرية ، أمانة لدى (أسامة بن منقذ) للتصرف به لأغراض تنفيذ المشروع ، إذا ما وافق نور الدين على التنفيذ (4).
- في حال الوصول إلى اتفاق مع نور الدين يتولى ابن منقذ التصرف بالمال المشار إليه للحصول على مجموعة من المقاتلين لمساندة تحركات ابن السلار ضد الصليبيين (5).

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 10

(2) المصدر السابق : 10-11

(3) المصدر السابق : 11-12

(4) المصدر السابق : 11-13

(5) المصدر السابق : 12-13

ثم يشير ابن منقذ إلى فتنة مقتل ابن السلار على يد نصر بن عباس⁽¹⁾ - حفيد زوجة ابن السلار - وقد حضر أسامة بن منقذ مجلس ركن الدين عباس، وهو يوبخ ابنه ناصر الدين لقتله ابن سلار، فدافع عن نصر بن عباس لأنه ما فعل ذلك إلا ليحظى والده بالوزارة، يقول أسامة بن منقذ: "فقلت لعباس: يا مولاي، كم تلوم مولاي ناصر الدين - بن عباس - وتوبخه وهو ساكت؟ اجعل الملامة لي، فأنا معه في كل ما يعمل، ما أتبرأ من خطئه ولا صوابه، أي شيء هو ذنبه؟ ما أساء إلى أحد من أصحابك، ولا فرط في شيء من مالك، ولا قدح في دولتك، خاطر في نفسه حتى نلت هذه المنزلة، فما يستوجب منك الملامة (2) ".

وبهذا بدأت الفتنة تشتعل لتصب في بحر الدماء، فقد أشار أسامة إلى هذه الخلافات كلها في سيرته بشكل مفصل، فألقى الضوء على جانب مغمور من تاريخ مصر السياسي.

ولأن ابن عباس هو من قتل ابن السلار، فإن الظافر أراد له أن يصبح وزيراً بدلاً من والده "وواصله بالعطايا الجزيلة، فحضرتة يوماً (أي أسامة هو الذي حضر وشاهد بأمر عينيه) وقد أرسل إليه عشرين صينية فضة فيها عشرون ألف دينار، ثم أغفله أياماً، وحمل إليه من الكسوات من كل نوع ما لا رأيت مثله مجتمعاً قبله، ثم أغفله أياماً، وبعث إليه خمسين صينية فضة فيها خمسون ألف دينار⁽³⁾... وأنا مع ابن عباس (أي أسامة)، لا يفسح لي في الغيبة عنه ليلاً ولا نهاراً: أنام على رأس مخدته"⁽⁴⁾.

(1) هو ناصر الدين: نصر بن عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن باديس، تأمر هو والظافر على قتل ابن السلار ونجحا في ذلك، فتولى والده الوزارة بدلا من ابن السلار، ثم تأمر هو ووالده فقتلا الظافر. (الاعتبار: 18)

(2) الاعتبار، ت: فيليب حتي: 19

(3) المصدر السابق: 19

(4) المصدر السابق: 20

يدل هذا على الثراء الفاحش الذي كانت تعيشه الدولة الفاطمية آنذاك ، والبذخ الذي كان الأمراء ينفقونه من غير حساب ، وهذا كله ساعد على الإخلال في أركان الدولة ، والقضاء على أركانها ، وسياقها نحو الهاوية .

ويتحدث ابن منقذ عن مشاورة ابن عباس له في قتل والده ورفضه لذلك بقوله: "يا مولاي لا يستترك الشيطان، وتتخذ لمن يغرك، فما قتل والدك مثل قتل العادل - يقصد ابن السلالر- فلا تفعل شيئاً تلعن عليه يوم القيامة، فأطرق وقاطعني، ونمنا، فأطلع والده على الأمر، فلاطفه وقرر معه قتل الظافر"⁽¹⁾.

ثم يشير أسامة بن منقذ إلى المذبحة التي أطاحت بالأمراء الفاطميين أخوة الظافر على يد عباس وابنه، بعد اتهامهم لهم بقتل الخليفة، وقد استنكر ذلك بالقول: "وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بي لما جرى فيها من البغي القبيح الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق"⁽²⁾.

تعددت الأحداث السياسية في عصر أسامة ، ونستطيع أن نقول إن معظم سيرة أسامة ، هي عبارة عن أحداث سياسية وعسكرية بنسبة كبيرة ، وهذا يعود لطبيعة العصر الذي عاش فيه أسامة، فهو عصر كان مليئاً بالفتن والمكائد والمفاسد ، وأكثر من ذلك ، فإن الغزو الصليبي لبلاد الشام ومصر وبلاد الرافدين ، جاء متزامناً مع صراع القادة والوزراء على الحكم ، مما أدى إلى تعداد الأحداث السياسية التي عاصرها أسامة وشهدها .

(1) الاعتبار، ت : فيليب حتي : 20

(2) المصدر السابق : 21

فقد شارك أسامة بن منقذ في عدد من المعارك الحربية ، وكان له فيها دور سياسي بارز لا يمكن التغافل عنه، لأنه كان فيها شاهدا عيانا ، شاهد كل شيء ، وحضره، وتدخل فيه ،وسرده لنا في سيرته الجليلة التي صبغها بصبغة أدبية وفنية حتى لا يشعر قارؤها بالملل والسأم منها. وكما اعتدنا أن نرى أسامة فارسا شجاعا ، يخوض المعارك بقلب لا يعرف الخوف إليه طريقا ، فقد اشترك كذلك في حروب عدة أثناء إقامته في مصر ، حيث حارب إلى جانب ابن السلار عندما اختلف مع ابن مصال ، كما ورد سابقا ، كما حارب الإفرنج في عسقلان⁽¹⁾ حيث استشهد أخوه عز الدولة أبو الحسن علي في هذه الحرب⁽²⁾ .

وأخيرا سكنت الفتن في مصر ، واستقر الملك للملك الصالح طلائع بن رزيك ، وكان الود قائما بينه وبين أسامة ، لكن الحساد والحاقدين عليه ما زالوا يتبعونهما حتى أضطر أسامة للرحيل عن مصر .

فقد خرج أسامة ومعه أهله من مصر إلى الشام ، وكان العباس بصحبتهم، وقد لاقوا في مسيرهم أهوالا عظيمة ، إذ قاتلهم المصريون ونهبوهم ، كما هاجمتهم قبائل العرب على الطريق ، فعجز أسامة عن مواصلة السير مع أهله ، فأعادهم إلى مصر ليكونوا برعاية الملك الصالح طلائع بن رزيك ، الذي استقبلهم وأحسن إليهم ، كما هاجمهم الإفرنج على الطريق في

(1) عسقلان :مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين (معجم البلدان :4/137).

(2) الاعتبار، ت : فيليب حتي : 16 - 17 .

عدة مواضع ، وأسروا أخاه نجم الدين أبا عبدالله محمدا وبعد طول عناء ومشقة وصل إلى دمشق سنة خامس ربيع الآخر 549هـ (1).

وهناك اتصل بخدمة الملك العادل نور الدين ، وأخذ يرسل الملك الصالح في مصر ليرسل أهله إليه ، لكن الملك الصالح خاف عليهم من الإفرنج ، فعرض على أسامة العودة إلى مصر ليسلمه مدينة أسوان ، واستشار أسامة الملك العادل نور الدين في الأمر ، فأجابته : " ما صدقت متى تخلص من مصر وفتنتها ، وتعود إليها ، العمر أقصر من ذلك ، أنا أنفذ أخذ لأهلك الأمان من ملك الإفرنج وأسير من يحضرهم " (2) .

وحدث هذا إلا أن الإفرنج خانوا العهد ، فكسروا مركب أهل أسامة وسرقوه ، لكن سلامة الأهل والأولاد هوتت الأمر عليه ، إلا أنه حزن كثيرا على كتبه التي نهبت (3).

فسيرة أسامة تعد وثيقة سياسية مهمة في تاريخ هذه الحقبة في مصر، وما كان عليها من سواد، ونراه يتلوها بقطعه أخرى عن معاركه تحت لواء الشهيد نور الدين زنكي مع الإفرنج وخصومه مع أمراء الشام .

وسيرة أسامة بن منقذ في هذه الناحية تصور لنا الخلافات بين الدول والإمارات الإسلامية في الشرق، بينما ينزل الصليبيون في الشام ، ويكُونون لهم إمارات فيها ، ومصر من الجنوب مشغولة بفتنتها ودسائسها لا مع الصليبيين فحسب بل مع أبناء العمومة والأخوة في الدين، ولولا أن هب نور الدين يحمي حمى الشام لوقعت البلاد الإسلامية أسيرة في أيديهم .

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي: 25 - 29

(2) المصدر السابق : 34

(3) المصدر السابق: 35

ويفيض أسامة في وصف المعارك مع الصليبيين ويعود بنا إلى وصفه للحروب الصليبية، لأنه كان شاهداً عليها، ويقول في ذلك: " وقد كان بين هذه الوقعات فترات شهدت فيها من الحروب مع الصليبيين والمسلمين ما لا أحصيها ، وسأورد من عجائب ما شاهدته ومارسته في الحروب ما يحضرنى ذكره، وما النسيان بمستنكر لمن طال عليه ممر الأعوام ، وهو وراثته بني آدم من أبيهم عليه الصلاة والسلام " (1).

والحق أن سياسة المسلمين ضد أعدائهم أجمعين ، لم توجه الوجهة الصحيحة ، إلا حين قرر عماد الدين ، ومن بعده نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي جمع كلمة المسلمين تحت راية واحدة .

وحين توحدت سياسة المسلمين ، وانتهجت مبدأ الاتحاد انتصر المسلمون على عدوهم، وصاروا قوة عظيمة أمام جحافل عدوهم التي قضوا عليها شيئاً فشيئاً .

(1) الاعتبار، ت : فيليب حتي:36

• الجانب الاجتماعي :

أدت كثرة الحروب والصراعات في العصر الأيوبي إلى تدهور الوضع الأمني ، مما أدى إلى خلل في القيم الاجتماعية التي تفتى في بعض منها السلب والنهب وقطع الطريق والتهتك والمجون .

وقد عدت سيرة أسامة بن منقذ مسرح عُرِضت فيه كثيرٌ من الجوانب الاجتماعية التي سادت في ذلك العصر سواء عند المسلمين أم عند غيرهم ، وحيث تعددت مناحي هذه الجوانب فقد تمّ تقسيمها حتى يسهل الحديث عنها . وهي كالآتي :

- البناء الاجتماعي .
- العلاقات والمعاملات بين المسلمين بعضهم بعضا .
- العلاقات والمعاملات بين المسلمين والإفرنج .
- مجالس القضاء والحكم .
- منزلة المرأة ودورها .
- البطولات والتضحيات عند المسلمين ، وعند الإفرنج أيضا .
- الطعام والشراب واللباس ، والدعوات ، والألقاب .
- الصيد .

• فئات المجتمع :

كانت فئات المجتمع في بلاد الشام كما في غيرها من البلاد العربية، ثلاث فئات:

- الفئة الأولى: رجال الدولة على رأسها الخليفة والسلطان الحاكم، يتلوهما حواشيها من الوزراء والقادة والأمراء والولاة وكبار الموظفين، وبعض التجار.
- الفئة الثانية : فئة وسطى تتكون من صغار الموظفين والتجار والأطباء والصناع والقضاة والعلماء .
- الفئة الثالثة : فئة العامة ، من الزراع والخدم والرقيق وأصحاب الحرف .

■ الفئة الأولى: رجال الدولة على رأسها الخليفة والسلطان الحاكم يتلوهما حواشيها من الوزراء والقادة والأمراء والولاة وكبار الموظفين، وبعض التجار.

كان بنو منقذ في إمارتهم في شيزر يُعدّون من هذه الطبقة ، فقد كانوا أمراء وحكاما وسادة تلك المنطقة التي يعمل فيها الفلاحون والزراع والحلاجون الذين يعملون في زراعة القطن . كما كان عندهم الغلمان يخدمونهم ، والبازيارية للاهتمام بشؤون البزاة للصيد⁽¹⁾. فقد ذكر أسامة في سيرته كيفية معاملة والده للمماليك، والخدم ، والفلاحين ، بأنه كان يرحم من كان يعمل عنده ويعطف عليهم .

(1) انظر : الاعتبار ، ت : فيليب حتي: 193 - 201 .

■ الفئة الثانية : فئة وسطى تتكون من صغار الموظفين والتجار والأطباء والصناع والقضاة والعلماء .

لم تقتصر الحياة الاجتماعية على الطبقة الحاكمة فقط بل كان غيرهم ممن هم أقل درجة بالنسبة للوضع المادي ، فكانت هذه الطبقة تعيش في وضع متوسط من الحالة الاقتصادية مما هياً لها حياة معتدلة ، فقد كانت تشوبها أحيانا بعض الضوائق وخاصة عندما تزداد الضرائب على التجار زيادة قاسية . فقد كان التجار يعيشون في ضائقة مالية من شدة الضرائب حتى جاء عصر الناصر صلاح الدين ، فخفف الضرائب عن التجار ، وأعادهم إلى وضعهم الطبيعي .

وقد كانت هناك صناعات مختلفة يعمل بها الناس ،مثل: صناعة الأحذية⁽¹⁾ ، والترخيم⁽²⁾ والعمل على الرحي التي يضمنها أحد الصناع مقابل مبلغ من المال يدفعه لصاحبها⁽³⁾. وغيرها من الصناعات التي كانت تدخل على صاحبها ربحا مناسباً .

وذكر أيضا ابن منقذ أن الناس اشتغلوا في مختلف أشكال التجارة ، مثل محال للبيع والتسويق ، والمخابز ، والتجارة التي تعتمد على السفر من مكان لآخر ، وتجارة القمح وتضمين المحصول للفلاحين ، وتجارة الطيور وبيعها للأمرء وغيرهم⁽⁴⁾ .

وكان هناك موظفون يعاونون الوزير في الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شؤونها .

(1) هو مايدعى بالإسكافي ، الاعتبار، ت : فيليب حتي : 130

(2) الترخيم هو صناعة الرخام لتجميل البيوت به بعد صقله ، الاعتبار : 131

(3) المصدر السابق: 102 .

(4) انظر : المصدر السابق : 179 ، 182 ، 185 .

وكان يعمل في المناصب الدينية القضاة ، يعملون على النظر في الأحكام الشرعية والإشراف على بعض الأمور التي تتعلق بالشرعية الإسلامية ، مثل المحاكم التي كانت تقام عندهم آنذاك (1).

وكان هناك النساخون الذين يعملون في خزانة الكتب ، مثل يانس (2) الذي نسخ لوالد أسامة القرآن الكريم نسختين (3).

كما كان هناك موظفون يعملون في دور ضرب العملة وسك النقود ، وفي البريد فأصبحت أداة هامة في شؤون الدولة ، والشرطة في استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين .

وكان منهم من يعمل بالجباية ، فنجد أن بعض رجال الدولة يسلمون جباية أموالهم وأموالهم إلى من كان عالما بالحساب والكتابة (4). فوالد أسامة كان له وكيل على ضيعة يدعى نصر بن علي بن محبوب ، يعمل وكيلا و محاسبا وجابيا للأموال (5).

ولا ننسى دور الأطباء ، فقد كان كثير من الناس يزاولون مهنة الطب، وكانت توفر لهم ربحا جيدا ، وساعد أكثر على ذلك أيضا ، كثرة المستشفيات في العراق والشام ومصر في ذلك العصر (6) . وقد ذكر أسامة في سيرته ، كثيرا من أساليب الطب ، وقدرة الأطباء

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 125

(2) هو يانس النافع ، ذكره المقرئزي أنه عمل في خزانة الكتب الأفضلية عام 506هـ . اتعاط الحنفا 3 / 51.

(3) الاعتبار : 199

(4) المصدر السابق : 179

(5) انظر : المصدر السابق : 143

(6) المصدر السابق : 176 .

على معالجة الأمراض المختلفة ، ومنها أن ابن بطلان طلب من جد أسامة مقلد بن نصر ابن منقذ لعلاج ولده الذي ظهر في جلده الوضح خمسمائة دينار (1).

ولا ننسى أن المعلمين والمؤدبين كانوا يعدون من الفئة الثانية ، لأن معظم الحكام والأمراء وأغنياء الدولة ، كانوا يتخذون لأبنائهم معلمين ومربين ومؤدبين ، يعلمونهم مختلف الفنون ، ويجزونهم خير جزاء مما يوفر لهم وضعا ماديا جيدا ، فأسامة كان له مؤدب يدعى بابن المنيرة (2) يقول أسامة " ومؤدبي الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة رحمه الله " ، وكان الشيخ أبو عبد الله الطليطلي النحوي أستاذه في النحو (3) .

■ الفئة الثالثة : فئة العامة ، من الزراعة والخدم والرقيق وأصحاب الحرف .

تنوعت أعمال بعض هؤلاء ، فمنهم قائمون على المساجد ، وبوابون للقصور ، وطهاة وجزارون في مذبح البلد ، ودباغون للجلود ، وباعة في الطرقات ، وحمامون في حمامات الأسواق (4) ، وقد كانت الزراعة لدى بعض الفلاحين تدر عليهم أرباحا جيدة خاصة إذا كان المالك تقيا متدينا ، فكان للفلاح نصف المحاصيل بحق عمله ، وللمالك النصف الآخر بحق ملكه (5) .

(1) انظر : الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 184

(2) ابن المنيرة : أبو عبدالله محمد بن يوسف من أهل كفر طاب نزل حصن شيزر ، نقض كثيرا من مسائل النحويين ونقد الشعر وغريب القرآن ، مات في رمضان سنة 503هـ . (بغية الوعاة 124)

(3) الاعتبار : 208 .

(4) انظر : المصدر السابق : 76 ، 188 ، 177 ، 117 ، 126 ، 104 ، 191 ، ، 155 .

(5) المصدر السابق : 175

• العلاقات والمعاملات بين المسلمين بعضهم بعضا .

لقد بينت لنا سيرة أسامة بن منقذ مجموعة كبيرة من الحوادث التي تدل على العلاقات المثالية بين أفراد المجتمع المسلم ، وإلى حوادث تدل على الجشع والبخل .

• فمن الحوادث التي تدل على العلاقات المثالية : يروي لنا أسامة قصة أسر ابن صاحب الطور وحبسه في بئر عميقة ، ثم إقامة أسير مسلم بدوي معه في البئر ، فخلصه ابن والي الطور ، وهو يقول : " والله لأسعين في خلاصه ، لعل الله يخلصني بثوابه " وكان قد أخرج ابن الطور عندما قال للسجان دعه يذهب ، حتى يخبر أهلي ، فيدفعون لي ويخرجونني من هذا البئر ، فخرج البدوي ، وكان الجزاء من البدوي وفاقا ، فأخذ يحفر في الأرض قرابة شهرين من قرية قريبة من البئر تسمى خربة حتى نفذ إلى الرجل وخلصه من سجنه ⁽¹⁾ فيقول أسامة ، فما أدري ممّ أعجب من حسن وفائه .
فما أعظمها من تضحية ، وما أجزله من جزاء ، حين يقع الإنسان أسير الإحسان ، فيقيم في رقبته ، وينقاد لمعروفه .

ويروي أسامة أيضا أنه كان يشتري الأسرى ويحررهم ، فيقول : " وهان ذلك عليّ لمسرتي بخلاص أولئك المساكين " ⁽²⁾ . ويورد قائلا : " وأنا أرغب الناس في ثوابهم " ⁽³⁾ .

▪ ولقد ذكر أيضا أسامة حوادث تدل على الجشع والبخل لدى البعض :

حيث يقول : " وقد كان لي في مثل ذلك الوقت الصعب يُمتنّ فيه بيسير الإحسان ، ويطلب المكافأة عنه . ولقد شربت من بعض الأتراك شربة ماء أعطيته عنها دينارين ، وما زال بعد

⁽¹⁾ الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 81

⁽²⁾ المصدر السابق : 82

⁽³⁾ المصدر السابق : 83

وصولنا دمشق يقتضيني حوائجه ، ويتوصل بي إلى أغراضه لأجل تلك الشربة التي سقانيها⁽¹⁾ " .

• العلاقات والمعاملات بين المسلمين والإفرنج :

روى أسامة طرفا من علاقات المسلمين بالفرنجة في أيام السلم ، أظهرت كثيرا من المعاملات الحسنة ، والعلاقات الطيبة ، فيروي أسامة بعض قصصه مع الداوية الذين كان يقول عنهم : " وهم أصدقائي "⁽²⁾ ، وكانوا يخلون له مكانا في مسجد صغير كي يصلي فيه ، وكانوا يزجرون من يتعرض إليه من قومهم .

ويورد أيضا أسامة لنا بعضا من حسن المعاملات عند الإفرنج يقول : " ... كنت قد نفذت مملوكا لي في شغل معهم إلى دمشق ، واتفق أن أتأبك زكي ، رحمه الله ، أخذ حماة ونزل على حمص ، فاستدت الطريق على صاحبي ، فتوجه إلى بعلبك ، واكتري بغل رجل نصراني يقال له (يونان) ، فلقية إنسان وقال له (لا تمضوا ، فإن في طريقكم عدة حرامية في ستين سبعين رجلا ، يأخذونكم ، قال : فوقفنا لا ندرى ما نعمل ، ما تطيب نفسنا بالرجوع ، ولا نجسر على المسير من الخوف ، فنحن كذلك إذ الرئيس (يونان) قد أقبل مسرعا ، فقلنا : " ما لك يا ريس ؟ " قال : " سمعت أن في طريقكم حرامية جئت لأسيركم سيروا " ، فسرنا معه إلى ذلك الموضع ، وإذا قد نزل من الجبل خلق عظيم من الحرامية يريدون أخذنا ، فلقبهم (يونان) وقال : " يا فتيان ، موضعكم ! أنا يونان ، وهؤلاء في

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 93

(2) المصدر السابق : 135

خفارتني ، والله ما فيكم من يقترب منهم ؟ " فردّهم جميعاً عنّا ، وما أكلوا من عندنا رغيف خبز ، ومشى معنا يونان حتى أمنا ، ثم ودعنا ، وانصرف .⁽¹⁾ .

• القضاء والحكم عند المسلمين وعند الإفرنج :

أ- القضاء والحكم عند المسلمين : يقوم على قواعد وضوابط وأحكام ، لا يمكن لأحد الخروج عنها ، فإذا حكم القاضي حكماً ، فإنه يحكمه بما يرضي الله تعالى ، ولا يخالف شرع الله ، ويقوم القصاص على أي أحد مهما علا منصبه أو دنا ، ويقوم على أساس واحد هو تحقيق العدالة الإسلامية ، وانتشار دين الإسلام .

ب - القضاء والحكم عند الإفرنج: لم يكن الحكم عند الإفرنج مبنيًا على أحكام وضوابط ، بل كان كل حاكم ، أو أمير يعطي الحكم الذي يريد في أي وقت دون مرجعية . وفي هذا يورد أسامة بعض الأمثلة على القضاء والمحاكمة عندهم ، يقول أسامة : " وشهدت يوماً بنابلس وقد أحضروا اثنين للمبارزة ، وكان سبب ذلك أن حرامية من المسلمين ، كبسوا على ضيعة من ضياع نابلس ، فاتهموا بها رجلاً من الفلاحين ، وقالوا : " هو دلّ الحرامية على الضيعة " فهرب فنفذ ملك أورشليم (فلك) ، فقبض على أولاده ، فعاد إليه وقال : " أنصفني ، أنا أبارز الذي قال عني أنني دللت الحرامية على القرية ، فقال الملك لصاحب القرية : " أحضر من يبارزه " فمضى إلى قريته ، وفيها رجل حداد ، فأخذه وقال له : " تبارز " إشفاقاً من صاحب القرية على فلاحيه ، فلا يقتل منهم واحد ، فتخرب فلاحته ، فشاهدت هذا الحداد ، وهو شاب قوي ، فأعطي كل واحد منهم عصا وترسا ، فظلا

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 80

يتبارزان ، حتى أخذ منهم التعب، ونزف الدماء من كل واحد منهم ،وأصاب الفلاح التعب ونزل إلى الأرض ، ووضع الحداد أصابعه في عين الفلاح ، ثم قام وضربه على رأسه حتى قتله ، ووضع حبلا في رقبته ، وجره وشنقه"⁽¹⁾ .

ومع هذا فقد حدثنا أسامة عن أسلوب للحكم لدى الإفرنج تظهر فيه الرجاحة والعدالة ، يقول : " وقد حاكمهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس من الشعراء⁽²⁾ وبيننا وبينهم صلح ، وأنا إذ ذاك بدمشق ، فقلت للملك فلك بن فلك⁽³⁾ : هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا ، وهو وقت ولادة الغنم ، فولدت ، ومات أولادها ،وردها علينا بعد أن أتلفها ، فقال الملك لستة سبعة من الفرسان : قوموا اعملوا له حكما ، فخرجوا من مجلسه وتشاوروا ، حتى اتفق رأيهم كله على أمر واحد ، وعادوا إلى مجلس الملك ، وقالوا له : قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم ، فأمره الملك بالغرامة ."⁽⁴⁾ .

إن المتتبع لنظرة ابن منقذ للإفرنج يجد أنها نظرة حيادية ، متوازنة إلى حد ما ، بعيدة عن الأنا وحب الذات المتغلغلة في البشر ، حيث نجده يصور بعض الصور السيئة من عاداتهم وحرورهم وفروسيتهم ، ويثني أيضا على بعض الحسن من تلك الأمور ، كما نلاحظه يذكر سلبيات قومه وإيجابياتهم ، وكأنه يريد القول ، إن هناك أمورا إيجابية عند الإفرنج ، وأمور سلبية أيضا كما عندنا تماما ، وإن درجة الكمال منتفية عن البشر .

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 139

(2) الشعراء : منطقة للرعي قريبة من بانياس ، كانت توضع فيه اصطبلات خيول العسكر ، وعمالهم ومواشي الفلاحين . (نيل تاريخ دمشق : 337) .

(3) فلك بن فلك : هو فلك الخامس صار ملكا على القدس بعد موت بلدوين الثاني سنة 526هـ ، كانت بينه وبين معين الدين أنر صداقة وصيد . تاريخ الحروب الصليبية : 284 / 2 .

(4) الاعتبار : 65

• منزلة المرأة ودورها :

لقد ذكر أسامة في سيرته منزلة المرأة ومكانتها عنده ، وأيضاً ذكر العلاقة بين الرجل والمرأة عند الإفرنج .

ظلت المرأة في نظر أسامة ، تلك الأنثى ، الإنسان ، تحب كصبيبة جميلة ، وتحترم كإنسان سواء أكانت أختاً أم حبيبة ، ولم نر في سيرة أسامة ، أي إشارة تدل على تعال على المرأة أو احتقار لها ، أو نيل من مكانتها .

وقد سجل أسامة في سيرته ، نساء كثيرات سمع فيهن أو رآهن ، مما جعل هذه الحكايات والأحداث تضيء على سيرته ، صورة واضحة جلية مليئة بالحركة لقيمة المرأة في عصره فهذه الحكايات ليست حكايات فردية تروى ، بل تصلح كل واحدة منها لتمثل حالة معينة .

فمن الحكايات التي تمثل احترام المرأة وتقديرها في زمن أسامة : يقول أسامة : " وكان ممن أسر في جملة من أسر في ذلك اليوم امرأة ، كانت من أصل جيد من العرب ، وصفت لعمي عز الدين أبي العساكر سلطان ، رحمه الله ، قبل ذلك ، وهي في بيت أبيها ، فأرسل عمي عجوزاً من أصحابه تبصرها ، فعادت تصفها ، وتصف جمالها وعقلها ، إمّا لرغبة بذلها لها ، وإمّا أروها غيرها ، فخطبها عمي وتزوجها ، فلما دخلت عليه رأى غير ما وصف له منها ، ثم هي خرساء ، فوفاه مهرها ، وردّها إلى قومها ، فأسرت من بيوت قومها ذلك

اليوم، فقال عمي : " ما أدع امرأة تزوجتها ، وانكشفت عليّ في أسر الإفرنج " فاشتراها ، رحمه الله بخمسمائة دينار ، وسلمها إلى أهلها " (1).

فهذه الحكاية إحدى الحكايات التي تمثل احترام المسلمين بشكل عام للمرأة ، والنظر إليها كإنسان كامل في مختلف الظروف والأحوال .

وذكر أيضا قصصا تظهر الشرف والعفة عند النساء ، ومن ذلك قصة والدة أسامة في القتال وفي ذلك يروي أسامة قائلا : " وفي ذلك اليوم فرقت والدتي ، رحمها الله ، سيوفي ، وجاءت إلى أخت لي كبيرة السن وقالت : " البسي خفك وإزارك " ، فلبست وأخذتها إلى روشن (2) في داري يشرف على الوادي من الشرق أجلستها عليه ، وجلست إلى باب الروشن ، ونصرنا الله سبحانه عليهم ، وجئت إلى داري أطلب شيئا من سلاحي فما وجدته، قلت : " يا أمي ، أين سلاحي ؟ " قالت : " يا بني ، أعطيت السلاح لمن يقاتل عنا ، وما ظننتك سالما " ، قلت : " فأختي أي شيء تعمل هاهنا؟ " قالت : " يا بني ، أجلستها على الروشن، وجلست برّا منها ، إذا رأيت الباطنية ، قد وصلوا إلينا دفعتها ورميتها إلى الوادي ، فأراها قد ماتت ، ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة " ، فشكرتها على ذلك، وشكرت الأخت ، وجزتها خيرا ، فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال (3).

ويذكر لنا أسامة في سيرته صورة المرأة عندما تقاتل جنبا إلى جنب مع الرجال، يقول أسامة : " وتلثمت في ذلك اليوم عجوز من جواري ، جدي الأمير أبي الحسن

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 71

(2) الروشن و الروشان واحد وهو الكوة أو النافذة أو المكان العالي .

(3) المصدر السابق : 124 - 125 .

علي رحمه الله ، يقال لها فنون ، فأخذت سيفاً ، وخرجت إلى القتال ، وما زالت كذلك حتى سعدنا وتكاثرنا عليهم . وما ينكر للنساء الكرام الأنفة والنخوة والإصابة في الرأي " (1).

فإن احترام أسامة لجنس النساء ، أمر يستدعي انتباهنا ، ولا ننسى أن نذكر أن هناك كتاباً لأسامة يختص بأخبار النساء ، سماه " أخبار النساء " ، ولكن للأسف لم يصل إلينا (2).

وذكر أسامة أيضاً العلاقة بين الرجل والمرأة عند الإفرنج وانعدام الغيرة والنخوة ، ووصف خصالهم الرديئة ، وقلة عفاف كثير من نسائهم ، وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند المسلمين من الغيرة .

ويروي أسامة حكايات وأحداث فيقول: " ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة، يمشي الرجل مع امرأته، ويلقاه آخر، يأخذ المرأة، ويعتزل بها، ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت خلاها مع المتحدث ومضى " (3).

ويروي أخرى عنهم وعن قلة نخوتهم وعدم الغيرة أن رجلاً من الإفرنج دخل إلى بيته ووجد رجلاً آخر نائماً في فراش زوجته ، فسأله ما الذي أدخلك هنا ، فأجابته ، تعبان ، فوجدت فراشا ، فنمت ، فقال له الإفرنجي : " إن عدت إلى فعلتك هذه مرة أخرى تخاصمنا أنا وأنت " (4) .

ونلاحظ أن ابن منقذ اتسم بنظرة موضوعية حيادية تجاه المرأة المسلمة ، فهو لا يقدم صورتها المشرقة فحسب ، بل يقدم أيضاً الجانب المظلم الآخر، في صورة قيام بعض النساء بالعمل كساحرات، كالمرأة التي تدعى بريكة التي كانت تسحر المقابر خلال ساعات الليل ، وقد سخر

(1) الاعتبار، ت : فيليب حتي: 125 .

(2) ذكره فيليب حتي في تحقيقه لكتاب الاعتبار: 15

(3) الاعتبار : 135 .

(4) المصدر السابق : 136 .

منها ابن منقذ عندما وصفها بأنها مكشوفة الرأس ، منفوشة الشعر ، تركب قصبية، وتسهل بين المقابر ، وتتجول هناك، وفي ذلك أوضح تعبير عن احتقاره لتلك الأعمال الشريرة من جانب بعض النساء (1).

• البطولات والتضحيات عند المسلمين ، وعند الإفرنج أيضا:

أ- البطولات عند المسلمين : ذكر أسامة في سيرته عددا من البطولات التي قام بها المسلمون، إمّا في حروبهم ضد الصليبيين ، أو في بعض الوقعات التي قاموا بها ، وفي ذلك يورد أسامة في سيرته مادحا بطولة وشجاعة جمعة النميري (2) قائلا : ... ورأيت جمعة النميري يهاجم الإفرنج ، ويدافع عنا ويقتل ثمانية فرسان " (3) . ويقول فيه عم أسامة : " لو حضرهم جمعة، رأيتم ما يعمل " (4). وتعددت البطولات عند غيره ، وكان لهم نصيب من تصويرهم في سيرة أسامة .

ب- البطولات عند الإفرنج :

لقد ذكر أسامة عددا من بطولات الإفرنج في سيرته ، مما يدل على أن أسامة اتبع الصدق والموضوعية في رواية سيرته ، فنجده يروي لنا قصة فارس إفرنجي يهزم أربعة مسلمين يقول أسامة : " فالتفت فرأى أربعة فوارس منا من ناحيته ، ... فحمل عليهم فهزمهم " (5).

(1) انظر : الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 123

(2) جمعة النميري : هو أبو محمود من فرسان شيزر وجنودها المعدودين كان صديقا لأسامة . الاعتبار: 57

(3) المصدر السابق : 57- 58 .

(4) المصدر السابق : 59 .

(5) المصدر السابق : 68

ويروي أسامة أيضا قائلا : " والإفرنج ، خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس ، سوى الشجاعة ولا عندهم تقدمة ، ولا منزلة عالية إلا للفرسان ، ولا عندهم ناس إلا الفرسان " (1) . فلم ينس أسامة ما للإفرنج الذين عركتهم الحياة في بلاد الشام من شجاعة وإقدام ، فساق عنهم جملة من القصص كما رأينا ، مما يدل على أن ابن منقذ كان عادلا في الحكم ، غير متحيز في سيرته ، مما يجعلنا نجدها تتمتع بالأمانة في الرواية ، والصدق في نقل الأخبار .

• الطعام والشراب واللباس ، والدعوات ، والألقاب :

كان عامة الناس يعتمدون في طعامهم على الدقيق والسمن والغنم ، يقول أسامة : " فحفلت الغنم والدقيق الكثير والسمن ، وما يحتاجه المحاصر " (2) ، ويصنعون منه الثريدة وغيرها يقول : " قلت لحمات (3) ، ونحن سائرون في طريق أصبهان (4) ، سحرا ، أمير حمات أكلت اليوم شيئا ؟ قال : نعم يا أمير ، أكلت ثريدة ، قلت : ركبنا في الليل وما نزلنا ولا أوقدنا نارا . من أين لك الثريدة ؟ قال : يا أمير ، عملتها في فمي ؛ أخط في فمي الخبز وأشرب عليه الماء يصير كالثريدة " (5) .

(1) الاعتبار : ، ت : فيليب حتي 64

(2) المصدر السابق : 2

(3) حمات : رجل كردي كان قديم الصحبة لوالد أسامة عاش في شيزر مدة حياته ، وخدم بني منقذ ، وقاتل دونهم ، حتى كبر وضعف . الاعتبار : 51-52 .

(4) أصبهان : مدينة عظيمة من أعلام المدن ، أرضها صلبة حارة ، فتحها عمر بن الخطاب عام 19هـ وهي من بلاد فارس . (معجم البلدان : 206/1) .

(5) الاعتبار : 51

فقد عني المسلمون عناية فائقة بموائد الطعام لديهم ، وكان الموسرون منهم يجلبون الطباخين والطباخات من مختلف البلاد العربية ، وتعلم الإفرنج ذلك من العرب، وقلدوهم في عادات الطعام والشراب بصورة كبيرة .

ولم يذكر من الشراب في سيرة أسامة بن منقذ إلا ما كان يتناوله الإفرنج من النبيذ⁽¹⁾ والخمير اللذين نقشى شربهما عندهم .

أما بالنسبة للباس : فقد ذكر أسامة اللباس في سيرته ، وقال: إن لباس الفقراء يكون من خام.

قال أسامة : " فأقبل رجل عليه ثوب خام ومئزر صوف "⁽²⁾ . وقد يكون ثوبا دمياطيا غليظا مصنوعا في مصر⁽³⁾ .

ووصف أيضا لنا لباس العروس ، يقول أسامة " وهو لابس وفوق درعه ثوب أحمر من ثياب العروس ، قد تشتهر به "⁽⁴⁾ . والعروس ليلة زواجها تلبس النمط ، وهو ثوب مصبوغ بالحمرة أو الصفرة ، أو الخضرة يغطي العروس حتى وجهها " " ولباس المرأة غالبا ثوب واسع ذو ألوان متعددة " ⁽⁵⁾ .

وينتعل الرجال في أرجلهم أحذية مكشوفة ، وأحيانا أخفافا تغطي القدم ويسمونها زربولا⁽⁶⁾ .

(1) انظر :الاعتبار، ت : فيليب حتي : 119 ، 120 ، 136 .

(2) المصدر السابق : 171

(3) المصدر السابق : 173

(4) المصدر السابق : 48-49 .

(5) المصدر السابق : 125

(6) المصدر السابق : 109

أما بالنسبة للدعوات ، فقد كان بعض الفرنجة القدماء في بلاد المسلمين يدعون بعض المسلمين، ويكرمونهم في أوقات السلم ، وقد دعا أحد فرسان الإفرنج العُتُق أسامة إلى منزله، يقول أسامة : " فأحضر مائدة حسنة وطعاما في غاية النظافة والجودة " (1). ويذكر أسامة أن الناس كانوا يوزعون حلوى خاصة بالعرس (2) .

أما بالنسبة لتبادل الألقاب فيما بينهم ، وتسمية أنفسهم بها ، إمّا ليكون فيه مجدا لهم، أو تكريما ورفعة لهم . حتى أصبح هذا الأمر سائدا بينهم ، وقد ذكر أسامة بن منقذ في سيرته بعض الألقاب التي كانت تدور بينهم ، فوالد أسامة كان يلقب بمجد الدين (3) ، وعمه بعز الدين (4) وأسامة نفسه مؤيد الدولة مجد الدين (5) .

(1) الاعتبار، ت : فيليب حتي: 140

(2) المصدر السابق : 45

(3) المصدر السابق : 185

(4) المصدر السابق : 53

(5) المصدر السابق : 199

• الصيد :

ذكر الباحث في بداية الفصل ، أن أسامة وضع بابا خاصا في سيرته في الحديث عن مغامراته في الصيد ، لما كان يشكل عنده جزءا من المتعة واللهو والتسلية ، فما أن تكاد تنتهي المعارك ، وقبل أن تشتعل نارها من جديد ، نجدهم يستغلون هذا الوقت في الذهاب للصيد والترفيه عن أنفسهم ، فيسرحون في الأغوار ، والجبال ، بحثا عن الطرائد والوحوش الشرسة ، ويقضون ليلهم بالسمر والدعابة .

فيقول أسامة في ذلك بيتا من الشعر ، يبين حبه للصيد واللهو (1) :

ولله منِّي جانب لا أضيِّعه وللهو منِّي والبطالة جانبٌ

ويقول أسامة " قد ذكرت من أحوال الحرب وما شاهدته من الوقعات والأخطار ، ... وأنا ذاكر فصلا فيما حضرته وشاهدته من الصيد والقنص والجوارح " (2) .
وقد مارس أسامة الصيد سبعين سنة من عمره ، مما مكّنه أن يصف طرائق الصيد وأساليب العمل وفقها (3) .

فقد كان الصيد نزهة للناس ، وأسلوبا للهو عندهم ، يقضون فيه أوقات سعيدة ، يقول أسامة عن والده : " فأما ما كان بشيزر فكان مع الوالد ، رحمه الله ، وكان مشغوبا بالصيد لهجا به وبجميع الجوارح ، فإنه كان نزهته " (4) .

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 191

(2) المصدر السابق : 191

(3) المصدر السابق : 226

(4) المصدر السابق : 192

وكان أسامة وغيره يخرجون لقتال الأسد والسباع ، وقد خرج ذات يوم مع أبيه وعمه ، فوجدوا أسدا على جرف النهر يتضرب بصدرة على الأرض ويهدر ، فتقدم أسامة نحوه ، وإذ بأبيه يصيح عليه قائلاً : " لا تستقبله يا مجنون فيأخذك " ومع هذا الصياح هجم أسامة على الأسد وطعنه حتى قتله ، كل ذلك لشغفه بالصيد وحبه له وولعه به (1).

وذكر لنا أيضا طريقته في صيد الطيور ، فقال : " أمّا صيد الطيور فيكون بالبزاة والشواهين حيث تدق الطبول ، فتضطرب طيور الماء ، فتأخذ منها البزاة ما تأخذ فما هرب منها أرسلوا عليه الشواهين لتأتي به " (2) .

وقد ذكر أسامة أسماء ما كانوا يستخدمونه هم وسواهم في الصيد من الحيوانات والطيور وأدواتها . فذكر من الطير : الباز الفرخ ، والباز المقرنص ، والشاهين الكوهي (3) ، والصقر والكلاب الزغوية (4) ، وكذلك ذكر في سيرته شيئا من آلات الصيد التي يصطادون بها مثل : الشبك ، والفؤوس ، والكلاليب ، والمجارف (5) .

والقارئ لسيرة أسامة يدهش لما يراه من أنواع الحيوانات والطيور، التي يصطادها الناس في البلاد، فمن الطير : الحجل ، والدراج (6) ، والكراكي (7) ، والصلاصل (8) ، وغيرها الكثير من أنواع الطيور، لا يتسع المقام لذكرها .

(1) الاعتبار، ت : فيليب حتي : 126

(2) المصدر السابق: 205

(3) الشاهين الكوهي : هو الصقر الذي يصطاد به في الجبال . معجم الحيوان : 102 - 103 .

(4) هي كلاب قدمت إلى بلاد الشام من السودان تمتاز بشدة احتمالها ومهارتها في الصيد . الاعتبار : 212

(5) المصدر السابق : 211

(6) طائر أسود باطن الجناحين وظاهرهما أغير على خلقه القطا إلا أنه أطف . المصايد والمطارد : 58 .

(7) طائر من أعظم الطير أغير اللون طويل الساقين عريض المنقار بشع المنظر . المصايد والمطارد : 98

(8) جمع صلصلة وهو الحمام . المصايد والمطارد : 54

ومن الحيوانات التي كانوا يصيدونها ، وذكرها أسامة في سيرته : الحمار الوحشي والأرنب ومعزى الجبل ، والضبع ، والذئب ، والأسد ، والغزال ، والسنجاب (1) .

ومن الملاحظ أن بني منقذ في شيزر ، على الرغم من أنهم نالوا جانباً هاماً من التحضر في جوانب من حياتهم ، إلا أنهم فضلوا أن يحيوا حياة البادية ، وأن يمارسوا فنون الصيد والقنص كما لاحظنا سابقاً ، ووجدوا في ذلك متعة كبيرة ، كما هو جلي من خلال عرض ابن منقذ نفسه .

فسيرة أسامة قد كشفت لنا كثيراً من الجوانب الاجتماعية التي عايشها، وأظهرها لنا بصورة جلية نقية لا غموض فيها .

(1) انظر : الاعتبار، ت : فيليب حتي : 202 ، 207 ، 214

الجانب الثقافي والفكري :

في ذلك العصر المضطرب الواقع تحت وطأة الحروب والغارات ، كان على حكام البلاد في تلك الأثناء ، كنور الدين ، وصلاح الدين ، وغيرهم من الأمراء كأسرة ابن منقذ ، أن يقوم كل منهم ببعض الإصلاحات الهامة بغية رفع الشأن السياسي ، والاجتماعي ، والثقافي فيوحد البلاد في مصر والشام ليستعيد بيت المقدس والإمارات الثلاث من الإفرنج ، وأن يهتم بالجيش ، فينشئ نور الدين ، وصلاح الدين المدارس ، ودور العدل ، وغيرها من الأمور .

فقد كان لاهتمام المسلمين بنشر الثقافة والوعي الفكري، أكبر الأثر في تثقيفهم حتى صاروا رموزا للعلم والحكمة.

اهتم أسامة بالعلم والثقافة بشتى مجالاتها ،ومن هنا نجده يحكي لنا قصة غدر الإفرنج بالمركب ، التي أقلت أهله من مصر إلى بلاد الشام ، مع أنهم أخذوا الأمان من ملك الإفرنج : " ... وحزّ فينا ذهاب ما ذهب من المال ، إلا ما ذهب لي من الكتب ، فإنها كانت أربعة آلاف من الكتب الفاخرة ، فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت " (1).

هذه صورة من صور الاهتمام الإسلامي بالعلم والثقافة ، فآلاف المجلدات يملكها أسامة، وترافقه من مكان إلى آخر ، ويبقى ضياعها حزازة في نفسه ما عاش .

وكان للأمراء المسلمين متابعة ورعاية لذلك الاهتمام الثقافي كما ذكرنا عن نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي .

وكان لوالد أسامة أثر كبير في سعة ثقافته ، مما يدل على مبلغ عناية بعض الآباء في ذلك العصر بثقافة الأبناء . فقد ذكر أسامة أن أباه له اليد الطولى في تعليمه علم النجوم، فيأبى

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي: 35

ويمتتع فيقول له أبوه : " فاعرف أسماء النجوم ، ما يطلع منها ويغرب ، فكان يريني النجوم ويعرفني أسماءها " (1).

ووالد أسامة كان يورد أبناءه موارد العلم والمعرفة ، فيحضر لهم العلماء والمؤدبين يقول أسامة : " وحضر معنا في الصيد الشيخ العالم أبو عبد الله الطليطلي النحوي - رحمه الله - وكان في النحو سيبويه زمانه . قرأت عليه النحو نحواً من عشر سنين ، وكان متولي دار العلم بطرابلس " (2).

ونجد أن أسامة تسانده ثقافته الأدبية وغيرها في كثير من أحداث كتابته ، فقد وصف مرة طعنة طعنها فارس مسلم بقوله : " وكانت تلك الطعنة ، طعنة فيصل كما قال عنتره :

الخيْلُ تعلمُ والفوارسُ أنني فرقتُ جمعهمُ بطعنةِ فيصلِ (3)

ومثل تلك الملامح الثقافية ، وغيرها الكثير ، تدل على ثقافة أسامة الواسعة .

وحين يحكي أسامة خبر أحد مؤدبيه وهو الشيخ أبو عبد الله الطليطلي تدهش دهشة عظيمة حين يسأله عن كتب كانت حوله ، وهي كتاب سيبويه ، وكتاب الخصائص ، وكتاب الإيضاح وكتاب الجمل (4) ، فيقول : " يا شيخ أبا عبد الله قرأت هذه الكتب كلها ؟ قال : قرأتها ؟ لا والله إلا كتبتها في اللوح وحفظتها ، تريد تدري ؟ خذ جزءا وفتحته وقرأت منه سطرًا ، فقرأ

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 56

(2) المصدر السابق : 208

(3) المصدر السابق : 39

(4) كتاب الخصائص في اللغة لابن جني ، وكتاب اللمع للعجمي ، وكتاب الجمل في النحو للزجاجي .

الصفحة بأجمعها حفظا حتى أتى على تلك الأجزاء جميعها ، فرأيت منه أمرا عظيما ما هو في طاقة البشر " (1).

فانظر إلى قول أسامة : " ما هو في طاقة البشر " ، والواقع أن العلماء العظام الذين ورثوا أمنا العلم لم يتهيأ لهم هذا إلا بعد أن تعاضم في نفوسهم حب العلم والعمل به ، وبالتالي غاصوا في بحاره ، ونهلوا من عذب مائه ، بعد أن أطروا أنفسهم ، ودللوها للعلم ، فلم يكف أبأ عبد الله أن يقرأ هذه الكتب ، بل كتبها ، وحفظها حفظا يثق به ، والرجال إذا قوا أنفسهم على شيء أدركوه .

لقد ساق أسامة بن منقذ في سيرته ، مجموعة من الأحداث التي تظهر مقدار الفكر عند المسلمين ، من خلال المعاملات فيما بينهم ، فيتحدث مثلا ، عن شرائه هو وعمه الأسرى المسلمين ليطلقهم ، ويطلب الأجر من الله ، بل إن الإفرنج اعتادوا من أسامة ذلك فكانوا كما يقول : " يسوقون أسراهم إلي ، لأشترينهم ، فكانت أشترى منهم من سهل الله تعالى خلاصه " (2).

وإذا كان المسلمون يكرمون أسراهم ، فلا يعذبونهم ، ولا يجرمونهم طعامهم ، فإن الإفرنج طالما حرصوا على تعذيب المسلمين الأسرى والتكيل بهم وخيانتهم . وقد حدث أن دنكري صاحب أنطاكية أعطى الأمان لحسنون الفارس المسلم ، إن ظفر به في القتال أن يطلقه ويعفو عنه ، فوق في يوم من الأيام أسيرا ، فقال دنكري لجنوده : " اقلعوا عينه اليمنى حتى إذا حمل الترس استترت عينه اليسار ، فلا يبصر شيئا " ثم أطلقوه بكفالة ألف دينار ، وحصان (3) .

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 209

(2) المصدر السابق : 81

(3) المصدر السابق : 66

لقد أبدى أسامة اهتماما كبيرا بأسلوب والده وأسرتة في التربية والتعليم . ومن المعروف أن والد أسامة كان رجلا متدينا محبا للخير . ويذكر في مواطن كثيرة من سيرته مواقف والده التربوية تجاه أسرتة ، ففي أوقات خروجهم إلى الصيد ، يقول لهم : " تفرقوا كل من عليه قراءة يقرؤها ، ونحن أولاد حفاظ للقرآن ، فنفرق نقرأ حتى يصير إلى مكان الصيد يأمر من يستدعينا فيسألنا : كم قرأ كل واحد منا ؟ فإذا أخبرناه يقول : أنا قرأت مائة آية أو نحوها . وكان رحمه الله يقرأ القرآن كما أنزل " (1) .

ولم يكن عمه أقل شأنًا من والده في رعايته وتربيته، يقول : " كان عمي عز الدين - رحمه الله - يتفقد مني حضور فكري في القتال ، ويمتحنني بالمسألة " (2) . وقد اختبره أكثر من مرة ، إذ كان يطرح عليه أسئلة تكشف عن مدى حضور ذهنه ، وكان أسامة ينجح فيها جميعا ، فيقول له عمه : " ما أراك كنت إلا حاضر القلب ذلك الوقت " (3) ، ومرة أخرى يقول له : " صدقت ما كنت إلا حاضر القلب ذلك الوقت " (4) .

ولقد كان المسلمون يحيون حياة ثقافية زاخرة ، فأسامة يخرج في نزهة للفرجة ، فيأخذ معه مقرئا ينشد مرة ، ويقرأ مرة، ويغني مرة (5) . وكان يأخذ معه إلى الصيد الشيخ أبا تراب حيدرة بن قطر متر (6) ، وهو الذي حفظ عليه القرآن ، وقرأ عليه العربية .

(1) الاعتبار، ت : فيليب حتي : 201

(2) المصدر السابق : 101

(3) المصدر السابق : 102

(4) المصدر السابق : 102

(5) المصدر السابق : 215

(6) حيدرة بن أحمد بن عمر بن موسى ، ويعرف بابن قطر متر ، أديب شاعر كان ميرزا في علم القرآن وفد على شيزر ، وأقام بها حتى مات . (بغية الطلب : 6 / 639) .

و يقول أسامة مادحا العقل والعافل ، وذاما الجهل والجاهل : " فإن العقل هو الذي يحمل على الإقدام على السيوف والرماح والسهام ،أنفة من موقف الجبان وسوء الأحدثة ، ... وكل أمر لا يحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلل " (1) .

ويسوق قصة أحيانا ، يستهجن فيها غياب العقل ،يقول: " فهذه آثار الجاهل وعواقبه " (2) .
لم تكن المرأة في سيرته أقل شأنًا من الرجل في الجانب الفكري والثقافي ، فوالدته وجدته كانتا تسديان إليه النصيحة دائما ، وتوجهانه إلى العمل الصحيح ، وقد حكى قصة صاحب له أراد أن يفر عن الحصن خوفا من القتال ، فلقيته إحدى قريباته فقالت له : " بئس ما تفعل تخلي بنات عمك ، وأهلك للحلاجين وتروح ، أي عيش يكون عيشك إذا افتضحت في أهلك ، وانهزمت عنهم ؟ اخرج قاتل عن أهلك حتى تقتل بينهم ، فعل الله بك ،وفعل ، ومنعته رحمها الله من الهرب ، وكان من الفرسان المعدودين بعد ذلك " (3) .

فانظر إلى آثار ذلك التوجيه الفكري القويم الذي لا يدع للوهن والعجز قرارا في نفوس الرجال، ولا غرابة في ذلك ؛لأنه كان يصدر عن أمهات الرجال .
ولم يهمل في سيرته أن يتحدث عن المظاهر العمرانية عند المسلمين والإفرنج ،فقد اعتنى المسلمون بإقامة مرافق تخدم المدن، وتهيئ لسكانها حياة أفضل وعيشا أرغد .
فيذكر أن لوالده حماما في شيزر، كان يديره رجل من أهل المعرة (4) .

(1) الاعتبار، ت : فيليب حتي : 85

(2) المصدر السابق: 59

(3) المصدر السابق : 124

(4) المعرة : هي معرة النعمان ، مدينة مشهورة تقع شمال مدينة حماة . الاعتبار : 155 .

وكانت تقام على أطراف المدن عند ضفاف الأنهر الرحي التي يستخدمها الناس في طحن الحبوب ، ويوجد بجوار الرحي مذبح للغنم ، يذبح به جزارو البلد " (1) .

واتخذ المسلمون لبيوتهم الرخام ، وورصفوا أرضها به حتى صار الترخيم صنعة في أيدي بعضهم ، يقول أسامة : " وتعلم الترخيم من مرخم كان يرخم دار والدي " (2) .

وكانوا يشيدون النواعير على ضفاف العاصي لسقي البساتين والدواب (3) . وساهموا أيضا في إنشاء المستشفيات والمراكز الطبية وعمارتها ، فشيدوا المارستانات، وجعلوا لها نفقات دائمة، ففي بغداد كان هناك مارستان ذكره أسامة عندما قال : " فلما وصلوا بغداد دخلوا المارستان ، وحكوا لمتولي المارستان حكايته " (4) . وفي عكا جعل السلطان صلاح الدين دار الأسقف التي بها مارستانا (5) .

لقد عاش الناس في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية تفتك بهم الحروب ، وتدب بهم الأوبئة، فحاولوا تخفيف أوجاعهم وعلاج جراحهم حتى مهروا فيها ، وحذقوا صنعتها ، ولقد كان للمسلمين التقدمة والسبق في ذلك المجال ، حتى إن الصليبيين كانوا يستخدمون الأطباء العرب. يقول أسامة عن والده الذي طعن في يده فقطع بعض أعصابها : " فحضرتة رحمه الله وزيد الجرائحي يداوي جراحه ، وعلى رأسه غلام واقف، فقال : يا زيد أخرج هذه الحصة من الجرح ... وكان يكتب خطأ مليحا، فما غيرت تلك الطعنة من خطه " (6) .

(1) الاعتبار، ت : فيليب حتي : 105

(2) المصدر السابق : 130

(3) المصدر السابق : 138

(4) المصدر السابق : 182

(5) البداية والنهاية : 12 / 327

(6) الاعتبار : 52-53

وهذا آخر قد طعنه إفرنجي في وسط أنفه ، فقطع من وجهه إلى أذنيه حتى تجوف وجهه، يقول أسامة : " فدخل البلد وخاط الجرائحي وجهه وداواه فالتحم ذلك الجرح ، وعوفي وعاد إلى ما كان عليه إلى أن مات على فراشه " (1).

ويطالعنا أسامة بمهاراته الطبية الفائقة ، حين ذكر له أمر جندي أصيب بالإغماء لكثرة ما وقع عليه من ضربات السيوف وغيرها . فأمر أن يفصد دمه ، وهو يقول : " ارجع افصده، فأنا أخبر منك بالجراح ، وليس له دواء غير الفصاد " (2) .

واشتهر من العرب المسلمين وغيرهم أطباء ذاع صيتهم، وطار ذكرهم ، فمن هؤلاء الشيخ أبو الوفا تميم الذي يحكي أسامة قصة تشخيصية لمرضه وعلاجه إياه، فيقول : " لحقني برد عظيم وقشعريرة من غير حمى وعلي الثياب الكثيرة والفرو ، ومتى تحركت في جلوسي ارتعدت ، وقام شعر بدني وتجمعت ، فأحضرت الشيخ أبا الوفا تميما الطبيب، فشكوت إليه ما أجد، فقال : أحضروا لي بطيخ هندي ، فأحضرت، فكسرها، وقال لي: كل منها ما استطعت، قلت : ياحكيم، أنا في الموت من البرد ، والزمان بارد، كيف آكل هذه مع بردها ؟ قال : كل كما أقول فأكلت . فما انتهى أكلي حتى عرقت ، وزال ما كنت أجده من البرد ، فقال لي : الذي كان بك من غلبة الصفراء ، ما كان من برد حقيقي " (3) .

(1) الاعتبار : ، ت : فيليب حتي 52

(2) المصدر السابق: 33

(3) المصدر السابق: 185

ومن غير المسلمين الطبيب المشهور بالمعرفة والعلم والتقدم في صناعة الطب يوحنا ابن بطلان⁽¹⁾ ، الذي كانت له إصابات عجيبة في الطب كما يقول أسامة⁽²⁾ . إذ جاءه رجل لا يقدر على الكلام ولا يبين ، فعرف منه أنه مغربل تراب ، فطلب له نصف رطل من الخل الحاذق ، وسقاه إياه فما لبث أن زرعه القيء ، فأخرج من جوفه طينا كثيرا حتى عوفي وعاد إلى صحته " ⁽³⁾ . وكان كل طبيب مشهور يرافقه تلامذته يتعلمون على عينه ، وينهلون من معينه ، فهذا ابن بطلان يوصي تلاميذه، قائلا : " لا تداووا بهذا الدواء أحدا فتقتلوه ، هذا كان قد علق بالمريء من غبار الغريلة تراب ما كان يخرج إلا الخل " ⁽⁴⁾ .

لقد ظل المسلمون بما فيهم أسامة بن منقذ ، يحافظون أشد الحفاظ على معتقدتهم باعتمادهم على ربهم ، على الرغم مما انتشر في العالم الإسلامي ، وساد من جهل وخرافات وضلالات إلا أن الإسلام عاد قويا في نفوس أصحابه ، إذ ما لبثت عواصف البغي أن هدأت في بلادهم، حتى عاد الإسلام صافيا في نفوسهم . إذ أن هذه الحروب أعادت المسلمين إلى كتاب ربهم والدفاع عن قيم دينهم ، حتى أصبحت حياتهم مثلا يقتدى ، وثقافتهم منها يحتذى ، بل إن الإفرنج تأثروا بالمسلمين ، وقلدوهم في كثير من مناحي حياتهم الاجتماعية ، والدينية والحضارية ، يقول أسامة في ذلك : " فإذا خرجن من الدور اتخذن الحجاب ، شأن النساء المسلمات " ⁽⁵⁾ .

(1) هو أبو الحسن المختر بن الحسن بن عبدون نصراني من أهل بغداد ، كتب مؤلفات عديدة في الطب، منها كتاب (دعوة الأطباء) . عيون الأنبياء في طبقات الأطباء : 325 .

(2) الاعتبار، ت : فيليب حتي : 183

(3) المصدر السابق : 184

(4) المصدر السابق : 184

(5) المصدر السابق : 174

لقد كان أسامة يوجه ويرشد المحارب وغيره إلى ما يظهر الإيمان الكامل والتسليم بما يبصره الله سبحانه ، ويسهل لعباده ، فنجده يذكر في كلامه : " كل ذلك مقرون بما تجري به الأقدار"⁽¹⁾. ويقول : " ولا تشك أن الله سبحانه أعماهم عنه ، وستره عن أبصارهم فسبحان القادر الرحيم " ⁽²⁾.

ولقد تطرق أسامة في كتاب الاعتبار إلى كثير من الخرافات والبدع، التي لم ينح من السقوط فيها عامة الناس وخاصتهم ، فعلى سبيل المثال ،قيام ليلة النصف من شعبان ، والتأكيد عليها، حتى كأنها سنة متبعة ،عمل لم يثبت قيامه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو عن صحابته رضي الله عنهم أجمعين ، ومع ذلك فقد وقع فيه والد أسامة وجدته،يقول: " ولقد حضرتها ليلة النصف من شعبان ، وهي تصلي عند والدي ، وكان رحمه الله من أحسن من يتلو كتاب الله تعالى ، ووالدته تصلي بصلاته ، فأشفق عليها، فقال : " يا أمي ! لو جلست صليت من قعود، قالت يا بني ، بقي لي من العمر ما أعيش إلى ليلة مثل هذه الليلة ؟ لا،والله ما أجلس !! " ⁽³⁾ .

ويحدثنا أسامة أن التفاؤل بالنجوم كان في زمنه ، يقول في ذلك : " كان عباس بن أبي الفتوح ، قائد الجند بمصر يلهج بالنجوم ، ويعتقد فيها التيسير والتعسير ، يقول : " وكان كثير اللهج بالنجوم ، وهو معول على المسير بالطالع يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول من السنة "⁽⁴⁾ . وتحدث عن انتشار شرب الخمر عند بعض القادة،وعده نذير سوء ، فيقول : " وكان إيلغازي إذا شرب النبيذ يخمر عشرين يوماً " ⁽⁵⁾ .

(1) الاعتبار، ت : فيليب حتي : 162

(2) المصدر السابق : 115

(3) المصدر السابق : 127

(4) المصدر السابق : 24

(5) المصدر السابق : 119

وقد أدى البعد عن الدين كما يقول ، إلى الابتداع في الدين ، ونشر السحر والشعوذة ، ولقد انتشر الجهل بين الناس ، فهذه المرأة الساحرة التي تكسب رزقها عن طريق السحر ، كان زوجها جاهلا ضالا يستحل كسبها ، يقول على لسانه : " والله يا أمير ما أستحل أكل من الديوان ، ولا أكل من كسب بريكة ، وهو الجاهل يظن أن ذلك السحت الحرام أحل من الديوان الذي هو مستأجر به " (1) .

لقد أذكت الحروب الصليبية في نفوس المقاتلين المؤمنين الحمية للدفاع عن دينهم ومقدساتهم ، وقد ذكر أسامة طرفا من ذلك ومنها قوله : " ومن الناس من يقاتل كما كان الصحابة رضوان الله عليهم ، يقاتلون للجنة ، لا رغبة ولا سمعة " (2) .

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 123

(2) المصدر السابق : 94

الفصل الخامس

* دلالة العنوان .

* اللغة .

* السرد و الحوار .

* الواقعية في سيرة أسامة .

* بروز شخصية الكاتب .

* الزمن والمكان .

* النزعة القصصية .

* النتائج و التوصيات .

* فهرس المصادر و المراجع .

• دلالة العنوان :

إن الحديث عن عنوان السيرة يثير منذ البداية قضية مهمة ، وهي لماذا عنون أسامة سيرته وسماها (الاعتبار) ؟، وما الفرق بينها وبين السير الأخرى التي كتبت في عصر أسامة بن منقذ نفسه ، والعصور التي قبله ؟ .

نجد أنه رمى من وراء سيرته إلى تعليم أمثلة أدبية ، وأورد فيها موادّ يرجى منها أن يعتبر القارئ بما حلّ بغيره ، وأن يستفيد لنفسه ، أمّا العظة التي أراد أن يغرسها في ذهن المتلقي ، بحيث لا تمحى فهي " أن ركوب أخطار الحروب لا ينقص الأجل المكتوب، فإنني رأيت ... معتبرا يوضح للشجاع العاقل ، والجبان الجاهل ، أن العمر موقت مقدر ، لا يتقدم أجله ولا يتأخر "(1) وأن " الله مقدر الأقدار ، وموقت الآجال والأعمار " .(2)

وأنه يجب أن " لا يظن ظانّ أن الموت يقدمه ركوب الخطر ، ولا يؤخره شدة الحذر ، ففي بقائي أوضح معتبر ، فكم لقيت من الأهوال ، وتقحمت المخاوف والأخطار ، ولاقيت الفرسان... ، وأنا من الأجل في حصن حصين ، إلى أن بلغت تمام التسعين ، فرأيت الصحة والبقاء ، فأعقبت النجاة من تلك الأهوال، ما هو أصعب من القتل والقتال ، وكان الهلاك في كنه الجيش ، وأسهل من تكاليف العيش ، واسترجعت مني الأيام بطول الحياة سائر محبوب اللذات وشاب كدر النكد ، صفو العيش الرغد ، فأنا كما قلت :-

مع الثمانين عاثَ الدهرُ في جلدي وساءني ضعفُ رجلي واضطرابُ يدي
فقل لمن يَتَمَنَّى طولَ مُدَّتِهِ هذي عواقب طول العُمر والمُدَدِ

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 162

(2) المصدر السابق : 162

فالفارئ لسيرة أسامة يلاحظ بشكل جلي الروح الإسلامية للكاتب ، فهو حريص في سرده لأحداث حياته ومشاهداته على غرض واحد، تأتلف و تتظافر حوله كل الأحداث المسرودة لتصبح في النهاية في مصب واحد، وهو ما أسماه (الاعتبار) ، لأن السيرة استهدفت أمرين واضحين جليين هما ، أنها حافلة بالأحداث والوقائع المثيرة ، والأمر الآخر الذي يعزز ويقوي العنوان الذي اختاره وهو من أجل توخي ثواب الله عزّ وجلّ ومنفعة المجتمع بما يثيره في سيرته من عظات وعبر ، فالعمل موجه إلى الله أولاً ، وإلى موعظة الإنسان ثانياً ، وإلى نفسه ثالثاً ، فهو يدرك أنّ وجوده الذاتي لا معنى له أصلاً خارج بوتقة الحكمة الإلهية ، والمشية الربانية .

فالعنوان الذي وضعه لسيرته كان موفقاً في اختياره ، فقد جاء مناسباً للغاية والهدف والدافع إلى كتابة هذه السيرة ، فقد صاغها بأسلوب يمتاز بالحكمة والورع والدقة المتناهية والبراعة في نظم وسردها الأحداث ، وجعلها تحت عنوان (الاعتبار) لتكون كما أراد، وربما هذا الأمر جعل سيرته تصطبغ بألوان الأدب ، وتسمو وتصبح رائعة من روائع السير، التي قلما وجد مثلها في عصره أولاً ، والعصور السابقة لعصره .

● اللغة :

اللغة هي وعاء الفكر ، أساس كل عمل أدبي ، وجماليات العمل الأدبي هي نتاجات من استخدام اللغة ، وقد استطاع أسامة بن منقذ ، توظيف اللغة وتطويرها في سيرته الذاتية ، بشكل استطاع من خلاله ملامسة قلوب القراء ، والتواصل معهم بأسلوب حساس وسهل ، ومؤثر في النفس ، فقد استخدم اللغة الفصيحة المحكية والبسيطة دون تكلف .

ولهذا جاءت لغته على سجيّتها تنساب انسيابا ، لتلامس قلوبنا دون حذر أو تهيب ، يخدمه في ذلك كونه أديبا وشاعرا ، ولهذا جاءت عباراته موجزة محكمة ، ومما أثرى لغته ودلالاتها ، وساعد في تكثيف عبارته ، وتخصيب لغته حفظه للقرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف الذي نمى لغته ، وجعلها تصل إلى منزلة راقية ذات رونق عذب ، وأيضا من خلال حفظه للشعر والأمثال والحكم والكثير من الحكايات ، وتوظيفها في مكانها المناسب ، فلم تأت هكذا اعتباطا ، أو حشوا ، بل جاءت لتعمق الدلالة ، وتؤكد المعنى ، وتختصر الكلام .

فالمتمأل في سيرة أسامة بن منقذ يلحظ أنها جاءت على شكل أخبار بديعة ، تحدث فيها عن حياته الخاصة الحافلة بالمغامرات والمشاهدات والتجارب ، وصورّ فيها الحياة في عصره خير تصوير ، وهي " مذكرات شائقة قل نظيرها ، من حيث الأمانة في النقل ، والصدق في الرواية والدقة في الملاحظة ، والنكهة في التعبير " (1) .

ولقد صورّ أسامة مجريات طفولته وصباه وأحداث حياته وجهاده بأسلوب سهل بسيط ، وعبارات مشرقة موحية ، بعيدة عن التصنع والتكلف ، وصياغة أحداث حياته بأسلوب قصصي شائق . ومن خلال دراستنا للغة في سيرته نجدها تمتاز بعدد كبير من الخصائص الفنية وهي :

(1) دراسات في كتب التراجم والسير : 30

- إن سيرته تمتاز بسهولة اللفظ ووضوحه ، بل إن لغة السيرة تزداد سهولة ووضوحا عندما ينطلق أسامة في حديثه بعفوية بالغة ، فتأتي لغة السيرة سهلة ، لا تكلف فيها ولا تعقيد .

فنلاحظ أن أسامة يتوخى السهولة والوضوح في كلمات يكثُر دورانها في الأحداث، من نحو قوله : (طول)⁽¹⁾ بمعنى أبطأ ، فهي أخف وأرق من أبطأ ، ونلاحظ من لفظة (تعبان)⁽²⁾ السهولة في النطق ، ونجد السهولة واضحة عنده من خلال سرده لقصص الصالحين ، ومصارعته الفرسان والأسود .

- دقة الألفاظ : إن الناظر في سيرته ، يكشف عن سعة معجمه اللغوي ، و حسن انتقائه منه ، فهو يقول عن ريش البزاة لضعفه (ينقصف)⁽³⁾ ، وحين يأتي المساء فيسكن المرء في بيت أهله يكون قد (أبرد)⁽⁴⁾ ، وغيرها الكثير من المصطلحات التي أثرت سيرته.

وأيضا من خلال استخدامه الألفاظ القوية التي لا يدخلها خلل مثل ألفاظ الدعاء على الإفرنج كقوله : (خذلهم الله)⁽⁵⁾ ، وألفاظ أخرى تدل على الأمر، مثل قوله " اتبع ، انفذ ، اجمع"⁽⁶⁾ .

- الإيحاء : اهتم بالإيحاء الذي ترسم فيه الكلمات أجواء تتجاوز المعاني اللغوية المحددة ، وتضفي عليها عمقا بعيدا ، فحين أراد أن يصف حال الجند الذين يلبسون على عباس بن أبي الفتوح⁽⁷⁾ أمره قال : " يخامرون عليه "⁽⁸⁾ فهذه الكلمات يحس الناظر فيها

(1) الاعتبار، ت : فيليب حتي : 109

(2) المصدر السابق : 108

(3) المصدر السابق : 199

(4) المصدر السابق : 18

(5) المصدر السابق : 48 ، 64

(6) المصدر السابق : 7 ، 28 ، 114

(7) انظر الحاشية : 116

(8) الاعتبار : 24

بالإيحاء العميق إزاء الحدث ، وكذلك كلمة " حزازة في قلبي " ⁽¹⁾ توحى بعمق الحزن والحرقة لما أصابه .

ولقد جاءت سيرة أسامة بأسلوب سهل بعيد عن التكلف ، والسجع ، وغيره من قيود الصنعة التي كانت تغل أسلوب العصر ، بل جاءت سيرته قريبة إلى اللغة اليومية الشائعة آنذاك . ونلاحظ كذلك أن ترتيب الأحداث والمواقف تتسم بوحدة تتوافر لا في تنظيمها وترتيبها وتركيبها فحسب ، بل تتوافر كذلك في الروح العامة للسيرة الذاتية بأكملها .

• السرد والحوار :

إن أكثر ما لفت أنظار النقاد في دراساتهم لسيرة أسامة بن منقذ هو السرد والحوار ، فقد استطاع التعبير عن أطوار شخصيته ، وأثر الأحداث عليها في سرد أدبي ، يثير في النفس أكبر قدر من المتعة الأدبية ، لأن أعظم ما يمتاز به هو أسلوبه الأدبي العذب المعتمد على الحوار الفني المحكم ، الذي يستعيد فيه في تمثّل قوي ما دار من حديث بينه وبين نفسه ، أو بينه وبين الآخرين ، أو بينهم وبين غيرهم .

لقد جاء السرد والحوار في سيرته بأسلوب أدبي عذب مشوق ، وعذوبته تكمن في مستوى اللغة الذي اختاره أسامة ، فقد اختار - كما أشرنا سابقا- لغة سهلة بسيطة بعيدة عن التعقيد والتكلف .

ونلاحظ في سرده ، للأحداث التي لم يعايشها ميلا كبيرا نحو الاختصار ، وعدم التفصيل ، حرصا منه على الحقيقة والصدق الذي ألزم به نفسه من البداية ، فأهم ما يميز

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتى : 35

سيرته الصدق ، ونقل الحقائق كما هي دون هوى أو تحيز ، وقد تحرى فيها الصدق عن نفسه ، وعن الذين ذكرهم فهو يقص القصة كما يعرفها مخلصا بعيدا عن التزوير⁽¹⁾.

ويأتي السرد عنده دقيقا في عباراته ، محكما في وصفه للأحداث ، ويجعل القارئ يصغي للحديث ، ويجد فيه المتعة الأدبية ، والحقيقة الواضحة .

فنجده يلجأ في كتابة سيرته إلى الأسلوب التقريري في سرد الحوادث ، حيث إنه يضيف على الأحداث كثيرا من الصدق والحيوية والواقعية .

ويستخدم هذا الأسلوب حتى لا يوقع القارئ في الملل من خلال عدم الإطالة ، فنجده يصف بعض مشاهد التضحية ، ومغامرات الصراع بشكل مختصر ، لأن نفسية القارئ وأعصابه مشدودة فيها إلى الصراع غير عابئة بالتفاصيل الدقيقة التي تدعو إلى الملل .

لقد طغى الأسلوب التقريري على سيرته ، حتى جاء السرد في معظمه تقريريا ، مما جعل السيرة - علاوة على أنها سيرة ذاتية - وثيقة تاريخية لحقبة من الحقب المهمة في تاريخ المسلمين .

وكثيرا ما يلجأ أسامة إلى الحوار للخروج من رتابة السرد ، فيخفف كثيرا عن القارئ ، ويبتعد عن الشعور بالملل ، ويضيف على الأحداث حيوية وواقعية .

(1) فن السيرة : 115

وقد يستدعي أسامة انتباه القارئ إلى حادثة يرى أنه من الضروري وقوفه عندها ، فيقطع السرد بقوله مثلا " فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم " (1) ، عقب سرده لمجموعة من الأخبار عن الإفرنج ، بل أنه يواصل سرده بعد ذلك ، واستطراده فيها . وقد يبدأ قصته منبها القارئ بصورة تحذيرية بعيدا عن التقرير والسرد ، فيقول مثلا : " والمحارب ولو أنه الأسد أتلفه وأعجزه اليسير من العوائق " (2).

ويأتي السرد عنده دقيقا في عباراته، محكما في وصفه للأحداث ، ويجعل القارئ يصغي للحديث ، ويجد فيه المتعة الأدبية ، والحقيقة الجلية ، مما يزيد متعة القارئ، ولا يجعله يشعر بالملل ،ومما يبقي أيضا على حيوية العمل الفني ، أنه كان يخصب سرده بإيراد بعض الأخبار الأدبية والروايات الشعرية في عدد من المواضع في السيرة ، فهو يستشهد أحيانا بالشعر وينسبه إلى قائله ، أو بشعر من نظمه ، ولكن ذلك يرد في قصصه دون تكلف أو تصنع .

وقد كان في أثناء سرده يستطرد ، فقد يوقف كاتب السيرة القارئ ليعرض عليه معلومات فائته ، أو لم يتمكن من سردها عليه ، فيعدل عن السرد التقريري إلى الكشف عن هذه المعلومات التي قد تكون جانبية على شكل حوادث بعيدة عن أصل القصة أو الحدث، فمثلا حين كان يتحدث عما قابله في طريقه من دمشق إلى عسقلان مع مجموعة من الإفرنج ، قال : " ... وكان أخي عز الدولة أبو الحسن علي رحمه الله ، في جملة من سار معي من دمشق هو وأصحابه إلى عسقلان ، وكان رحمه الله من فرسان المسلمين يقاتل للدين لا للعالم ... " (3) . ثم سرد حادثة وقعت لأخيه مع الإفرنج . وكذلك بينما كان يتحدث عن الصيد تذكر شيخه وأستاذه في النحو حيث خرج معه للصيد ذات يوم، فكان لا بد له من عرض

(1) الاعتبار، ت : فيليب حتي : 137

(2) المصدر السابق : 143

(3) المصدر السابق : 16

موجز عن شيخه فوصفه في صفحة كاملة ، ثم اعتذر قائلاً : " هذه جملة اعتراضية لا موضع لها من سياق الحديث " (1).

وإذا كان السرد في السيرة يعتمد على صياغة كاتبها ، فإن الحوار ينبغي أن يكون واقعياً وحقيقياً ، وصورة دقيقة منبعثة من نفوس الناس ، يقول الدكتور ماهر فهمي : " والحوار جزء هام من الصياغة الدرامية ، وبهذه الوسيلة تبدو لنا شخصية السيرة كأنها تضطلع حتماً بتمثيل مسرحية الحياة " (2).

ويمكن القول بأن هذه الوقفات قد أخلت بنمط الأسلوب التقريري في الكتاب ، إلا أنها كانت وسيلة للوقوف عند الأحداث المؤثرة والنظر فيها بصورة تحليلية عميقة ، ومن هنا نخرج بكتاب الاعتبار من كونه مجرد سرد تاريخي للحوادث، إلى الأسلوب الحي من خلال الشخصية التي يبعث المؤلف في أسلوبها الروح من جديد ، فتعيد تمثيل الأحداث كما لو كانت واقعة الآن .

إلا أن السرد قد جاء أحياناً في الكتاب مملاً يبعث على الضيق ، وذلك لأنه يسرد القصص العديدة لتعضيد أفكاره ، وهذا ما أكده الأستاذ فيليب حتي ، حين قال : " ولإثبات قضيته أتى المؤلف بالقصة تلو القصة ، التشابه والمشاركة ، وأحياناً التناقض والمخالفة ، كان السلك الذي قاده من رواية إلى أخرى " (3) .

وتبعاً لسرد القصص المتشابهة والمتضادة ، والوصف الطويل ، صارت عملية السرد تبعث على الملل ، على نحو سرده ، لوصف الحصن الذي حارب الإفرنج فيه (4) . ، إلا أنه حين

(1) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 209

(2) السيرة تاريخ وفن : 84

(3) الاعتبار ، تحقيق فيليب حتي : هـ

(4) الاعتبار : 96

يشعر برتابة السرد ، كان يحاول التخفيف عن القارئ ، بذكر حوادث طريفة ، يتذكرها في معرض سرد الحوادث الأخرى ، كحادثة السرج الذي ضاع منه وهو في طريقه من مصر إلى الشام ، حيث كان سرجا مذهبا ، وكان فيه مبلغ من المال (1) .

والقارئ لمثل هذه القصة يحس بطرافتها وتخفيفها من وطأة السرد المتلاحق .

ولقد صور من خلال الحوار شخصياته ومكوناته النفسية . ومن الملاحظ أن لغة الحوار في كتاب الاعتبار ذات مستويات متعددة، وأنها تتفق مع المستوى الثقافي للشخصية ، وتكشف عن ثقافتها وقدرتها ، فنجد في سيرته قد مزج بين اللغة الفصحى واللغة العامية ، أما تعليّل استخدام أسامه العبارات العامية في سيرته ، فهو فضلا عن دلالاته على سلامة ذوقه في الإنشاء ، لم يشأ أن يكتب سيرته باللغة التي كتب بها مؤلفاته مع أنه قادر على ذلك ، وقد شهد له بذلك كبار الكتاب نحو العماد الأصفهاني الذي أطرى أسلوبه بقوله : " وأردت أن أورد له من نثره ما يزهر فجره ، ويبهر سحره ... " (2) . بل إن الناظر في سيرته ليجد بين طياتها إنشاء بليغا وأدبا راقيا يعجز عن كتابة مثله كثير من كتاب عصره .

ولكن لما سار بين أبناء كل عصر لغة للحياة يحسنها الخاصة والعامية ، ويحسنون لكثرة استعمالها وإيجازها بقربها من أنفسهم ، إلا في إنشائهم ومجالس أدبهم ، ومنابر بيانهم ، وغير ذلك نرى أن أسامة نقل سيرته إلى الناس بلغتها القريبة من لغتهم وأفهامهم حتى يدركها كل من يقرأها ، وحتى تكون تصويرا واقعيا ودقيقا لأحداث حياته بما فيها اللغة الناطقة عنها.

(1) الاعتبار : ت ، فيليب حتى : 52

(2) خريدة القصر : 537/1

وقد أورد الدكتور فيليب حتي بعض الكلمات العامية في سيرة أسامة وهي :

1. "أيش " (أي شئ) أنتم⁽¹⁾ ، " ما في " (لا يقدر) هذا يسرق رغيف خبز⁽²⁾ .
2. استعمال صيغة الجمع العاقل لما لا يعقل : " الكلاب نطعمهم (نطعمها) من عيشنا"⁽³⁾
3. استعمال المثنى المنصوب في حالة الرفع : " ديواني كل شهر دينارين (ديناران)"⁽⁴⁾
4. إرجاع ضمير الجمع أو المفرد إلى اسم مثنى : " اطمرهم (اطمرها)⁽⁵⁾ ، " يبست رجلاي ودقت (ودقتا) "⁽⁶⁾.
5. لغة أكلوني البراغيث : " فافتطوعهم (فاقتطعهم) الروم "⁽⁷⁾.
6. الميل لإهمال الهمزة أو لتحويلها ياء (الحيط (الحائط) .⁽⁸⁾
7. الإشباع : " روح (رُح) "⁽⁹⁾.
8. إدغام الحرفين المتجانسين وإقحام ياء بعدهما " دلبيت (دللت) الحرامية"⁽¹⁰⁾

(1) الاعتبار، تحقيق ، فيليب حتي :12

(2) المصدر السابق : 45

(3) المصدر السابق : 12

(4) المصدر السابق : 75

(5) المصدر السابق : 196

(6) المصدر السابق : 177

(7) المصدر السابق : 87

(8) المصدر السابق : 74

(9) المصدر السابق : 124

(10) المصدر السابق : 74

- وقد وردت أيضا في كتاب الاعتبار كلمات فارسيّة ، وتركيّة ، ويونانيّة ، وإفريقيّة .

- الكلمات الفارسيّة :

على قلة الكلمات الفارسية الدخيلة التي وردت في كتاب الاعتبار ، إلا أنها بشكل عام كثيرة في سيرته ، وذلك راجع إلى طول العلاقة بين الفرس والعرب ، وامتلاك كثير منهم لمناصب وزارية في العهد العباسي ، ومن الكلمات الواردة في كتاب الاعتبار :

- سندروس (1) ، الخان (2) ، سرفسار (3) ، صابون (4) ، البيرق (5) خاتون (6) ، دركاه (7) ، سرهنك (8) .

- الكلمات التركيّة :

لا تكاد تعثر على كلمات تركية في كتاب الاعتبار ، ويظهر أن تأثر العرب باللغة التركية ، كان ضعيفا جدا . حيث أسامة ذكر أنه لا يجيد التركيّة ، فقال : " وهم يتكلمون بالتركي ، ولا أدري ما يقولون (9) " .

-
- (1) الاعتبار : 12 ، وهو نوع من الصمغ الشجري الصلب ، تكلمة المعجم العربية : 639/1 .
 - (2) المصدر السابق : 150 ، وهو الحانوت ، يقول إدي شير : إنه فارسي بحت ، ولكن ابن منظور ذكر أنه معرب وهو محل للتجار ثم صار يطلق على ما يشبه الفندق ، ولا يزال مستخدما في عامية أهل الشام . (معجم الألفاظ الفارسية المعربة : 58) .
 - (3) المصدر السابق : 13 ، فارسي يعني : عنان الدابة ، أو مقودها (المصدر السابق : 91) .
 - (4) الاعتبار : 187 ، ذكر ابن منظور ، أنه ليس من كلام العرب . لسان العرب : 2397
 - (5) المصدر السابق : 102 ، العلم أو الراية ، (الألفاظ الفارسية المعربة : 106) .
 - (6) المصدر السابق : 144 ، هي المرأة المتصرفة التي بيدها الأمر ، المصدر السابق : 51 .
 - (7) المصدر السابق : 72 ، هو بلاط السلطان وملكه ، المصدر سابق : 62 .
 - (8) المصدر السابق : 26 ، هو الزعيم عند العرب ، الاعتبار : 26
 - (9) المصدر السابق : 151

- الكلمات اليونانية والإفرنجية :

تتأثرت بعض كلمات الإفرنج التي جاءت معهم في كتاب الاعتبار ، إلا أن أسامة وغيره لم يكونوا يجيدون لغات الإفرنج ، يقول أسامة : " فإنهم لا يتكلمون إلا بالإفرنجي، ما ندري ما يقولون " (1).

ومن الكلمات الإفرنجية التي وردت في كتاب الاعتبار :

سـرجند (2) ، طاسـة (3) ، البـسكند (4) ، البرجاسـية (5)
سقلاطون (6) ، الدّاما (7) .

(1) الاعتبار ، تحقيق ، فيليب حتي : 66

(2) المصدر السابق : 35 ، هم الجنود المشاة المدججين بالسلاح . (الحروب الصليبية : 97-98)

(3) المصدر السابق : الاعتبار : 187 ، هي وعاء ماء صغير ، ولا زالت تستخدم حتى الآن في البلاد الشامية ، وهي من أصل سرياني . (معجم الألفاظ العامية : 110) .

(4) الاعتبار ، تحقيق : قاسم السامرائي : 211 ، كر أسامة أنه شحنة البلد بالإفرنجية ، أي رئيسه .

(5) المصدر السابق : 135 ، لفظ فرنسي وهو التاجر الصغير ، (الاعتبار ، ت : السامرائي : 135) .

(6) الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 11 ، وهي ثياب يونانية موشية ، مصنوعة من الكتان ، (الاعتبار ، ت : فيليب حتي : 11) .

(7) الاعتبار : 136 ، (والدّاما بلسانهم هي : الست) ، أي تحريف كلمة مدام ، المصدر السابق : 136

ولا يعني قولنا هذا أن أسامة قد أغفل اللغة الفصحى في سيرته ، فمع كثرة دوران اللغة الدارجة في الحوار ، إلا أنه في الأغلب يتقيد بسلامة اللغة في الحوار حتى تكاد لا تجد فيه كلمة دارجة عامية أو مبتذلة يقول معين الدين أنر (1) مخاطبا أسامة: " والله لو أن معي نصف الناس لضربت بهم النصف الآخر ولو أن معي ثلثهم لضربت بهم الثلثين وما فارقتك " (2).

وكذلك استمع إلى حوار مع أبيه حين قال : " يا مولاي أنا أخاطبك فلا تسمع ، قال : يا ولدي ، في طالعي أنني لا أرتاع " (3).

وكثيرا ما يلجأ أسامة إلى الحوار للخروج من رتابة التقرير والسردي فيخفف كثيرا عن القارئ ويبعده عن الشعور بالملل ، ويضفي على الأحداث حيوية وواقعية .

" وما رأيت الوالد - رحمه الله - نهاني عن قتال ، ولا ركوب خطر نمهما كان يرى فيّ ، وأرى من إشفاقه وإيثاره لي " (4) .

ومن أجمل التقنيات السردية التي أضفت على سيرة أسامة بن منقذ جمالا ، ورفعت من مستوى التقنية في السرد والحوار ، استخدام (المنولوج الداخلي) والذي استطاع من خلال هذه التقنية أن يعبر عما يدور في أعماق نفسه ، ويخرجها بصبغة أدبية فنية رائعة ، مليئة بالأحداث التي تثير القارئ ، وتجلبه نحو متابعة السيرة ، لما فيها من أحداث ترغب القارئ في متابعتها والوصول إلى نهايتها ، وهذا يدل على أن سيرة أسامة ، يتجلى فيها السرد المطعم بالوصف الدقيق والعميق ، وبالحوار المحكم .

(1) معين الدين أنر : مملوك طغتكين صاحب دمشق ، هو أكبر أمراء دمشق ، كان صديقا لأسامة محبا له ولكنه غلب على أمره ، توفي سنة 544 هـ . (وفيات الأعيان : 1/297) .

(2) الاعتبار ، تحقيق : فيليب حتي : 4

(3) المصدر السابق : 56

(4) المصدر السابق : 103

ومن ذلك ما ورد في سيرته : فمثلا حين تقرأ ما دار من حوار بين بعض جنود الإسلام على أسوار دمشق ، تحس بكثير من الاندفاع والحماسة في نفسك ، يقول : " أما هؤلاء الروم ؟ قال : بلى ! قال : فإلى متى نحن وقوف ؟ قال : سر على اسم الله تعالى " (1) .

وفي ذلك أيضا ، صحا الجو ذات يوم في شيزر ، وكفت السماء عن المطر ، وطاب الصيد ، فعرض غلام يدعى (غنائم) على والد أسامة الخروج من شيزر للصيد ، فوافق ، وما إن خرجوا حتى تفتحت أبواب السماء بالماء ، فقالوا للغلام : " أنت زعمت أنها طابت وصحت ، حتى أخرجتنا في هذا المطر !! قال : ما كان لكم عيون تبصر الغيوم ، ودلائل المطر ؟ كنتم قلتم لي: تكذب في لحيتك ما هي طيبة ولا صاحبة " (2) .

ومن ذلك أيضا :

عندما أخبرنا عن إغارة الإفرنج عليهم ليلا ، يقول : " أغاروا علينا الإفرنج - لعنهم الله - ثلث الليل الآخر ، فركبنا نريد تتبعهم ، فمنعنا عمي عز الدين - رحمه الله - وقال : " هذه مكيدة ، والإغارة تكون في الليل " ، فخرج من البلد رجال خلفهم ما علمنا بهم ، فوقع الإفرنج ببعضهم " (3) .

إذن فالقارئ لهذه الأمثلة من سيرة أسامة ، يحس بطرافتها ، وتخفيفها من وطأة السرد المتلاحق ، فنجده يحاول التخفيف على القارئ ، بذكر مثل هذه الحوادث الطريفة .

(1) الاعتبار ، تحقيق ، فيليب حتي : 95

(2) المصدر السابق : 219

(3) المصدر السابق : 162-163 .

• الواقعية في سيرة أسامة :

نجد في سيرة أسامة واقعية في النقل ترد في قصصه التي يحكيها عن غيره ، سواء مع الإفرنج أو المسلمين ، ولا يتوانى أبداً عن أن يكون منصفاً واقعياً .
فهو على الرغم من حديثه عن الإفرنج بسوء خلقهم ، وكثرة غدرهم ، وقلة غيرتهم ، وجهل مجتمعهم ، إلا أنه حفظ لهم في سيرته مجموعة من القصص الحسنة ، مما يدل على واقعيته وعدالته .

ولميل أسامة إلى الواقعية ، فإننا نراه يسجل في تواضع حوادث زلاته ، أو فشله في بعض المواقع ، فيسوق حادثة موافقته لرفاقه في خطة فاشلة ، مفادها أنهم كانوا على أعلى الجبل وقطاع الطريق في السفح ، فاقترح بعضهم النزول إليهم ، فحين نزلوا دار قطاع الطريق حول الجبل ، وصعدوا إليه فصار أسامة وجماعته تحت الحرامية ، فتمكن قطاع الطريق منهم فقتلوا فارسيين ، وأخذوا ثلاثة خيول ، والقافلة التي كانت معهم (1) .
وتتجلى صورة الواقعية في ذكره الإفرنج ، فإذا كان قد ساق أخبار طعنات فريدة المسلمين فلا ينسى ما للفرنجية من ذلك ، فيقول : " وشاهدت من الطعنات العظيمة ، طعنة فارس من الإفرنج - خذلهم الله - فارساً من أجنادنا " (2) .

هذا ، وملامح الواقعية في سيرة أسامة كثيرة ، يشعر بها القارئ في كل حادثة يرويها أسامة .

(1) انظر : الاعتبار ، تحقيق : فيليب حتي : 154

(2) المصدر السابق : 48

• بروز شخصية الكاتب:

لا بد لكاتب السيرة من العناية بنمو الشخصية وتطورها اعتمادا على التدرج التاريخي المصبوغ بالصبغة الأدبية التي يذكرها صاحب السيرة، وأن يطبع صورا داخلية للأحداث، يظهر فيها عمق الصراع وأثره ويؤكد من خلالها ثبات الشخصية أمام المواقف الخارجية، بحيث لا تجعل القارئ ينتقل من حدث إلى حدث دون الإحساس بعمق التجربة التي خاض غمارها بطل السيرة، يقول الدكتور إحسان عباس: " لا بد للسيرة كي تكتب من أن يتجسد فيها الماضي بخيره وشره لا على شكل ذكريات متقطعة، ولا على شكل صور خارجية شاهدها الكاتب... بل على أساس من التطور الذاتي في داخل النفس وخارجها" (1).

فإن أهم ما يعنى به النقاد في السيرة الذاتية تطور شخصية الكاتب، لأن ذلك يطلع القارئ على نمو الشخصية وتحولها مع تغيير الزمن وتقدم العمر، وقصص أسامة وأحداثه في سيرته غالبا ما تظالعك بتطور شخصية ونموها، ولكن لما جاءت أحداث السيرة وقصصها بعيدة عن الشمول، وتوالت دون ترتيب للعمر الزمني للكاتب، وتنسيق ملائم له، صعب على القارئ التعرف بتطور الشخصية، وما طرأ عليها من تغيرات، وصار في حاجة إلى من ينظم له الأحداث والوقائع التي يستخلص منها ما عرض للشخصية من تغيرات وتطورات.

إن شخصية أسامة هي الشخصية الأساسية في سيرته، وهي المحور الذي تدور حوله الأحداث، فقد تحدث عن مراحل حياته المختلفة، وما ذاق من حلو الحياة ومرها. وألقى أضواء ساطعة على سيرة حياته، وصور مجتمعه تصويرا دقيقا، كما صور الصراع والرحلات التي قام بها، والأحداث الجسام التي شارك فيها، فهو يتحدث عن نفسه واصفا

(1) فن السيرة : 99

خفة جسمه ، وسرعة حركته قائلا : " فحملت عليه ، طعنته ، فنفذ الرمح من قدمه نحو
من ذراع ، وخرجت من السرج لخفة جسمي ، وقوة الطعنة ، وسرعة الفرس " (1) .

وكان من ينظر إلى شكله وسحنه لا يلتبس في نسبتها للعرب ، وقد حدث ... أن سار ذات
يوم في سوق للإفرنج ، فأمسكت به عجوز إفرنجية ، فاتهمته بأنه قتل أخاها لما رأت من
توافق بين صورته ، وصورة الجند العرب الذين قتلوا أخاها " (2) .

ونلاحظ في شخصيته من خلال سيرته أنها تمتاز بالشجاعة ، وشدة البأس ، امتدادا لرجولته
وفروسيته ، فهو فارس شجاع يلقي بنفسه في المخاطر ، فهو مع هذا شديد البأس ماضي
العزيمة ، فإيرينا شجاعته ومهارته من خلال قتاله للأسد ، وتصميمه على قتله ويقول في
ملاحقة أسد وقتله " ثم حدرت حصاني عليه فطعنته ، ونفذت الرمح فيه
وتركته في جانبه " (3) .

وتكشف لنا السيرة بعدا آخر في شخصيته من الناحية العلمية ، فوالده لم يكن يعني بتربيته
العسكرية فقط ، بل أحضر له المؤدبين والمعلمين ، يقول أسامة : " وحضر معنا في الصيد
الشيخ العالم ، أبو عبد الله الطليطلي النحوي رحمه الله ، وكان
في النحو سيبويه زمانه " (4) .

فقد امتلك أسامة كثيرا من صفات الرجولة والفروسية الفذة ، وكان فوق ذلك إنسانا مؤمنا
وشخصية نبيلة ، لا تنقصها أسباب الإمارة والسيادة ، فلا عجب إن كان يفخر بنفسه ، وكان
فوق ذلك إنسانا مؤمنا ، فقد كشف لنا أسامة عن جانب مهم من جوانب شخصيته ، وهو

(1) الاعتبار ، تحقيق ، فيليب حتي : 41

(2) المصدر السابق : 140

(3) المصدر السابق : 126

(4) المصدر السابق : 208

تسليمه بأقدار الله ، وإيمانه بمجرياتها ، وذلك ناتج عن أثر التربية الدينية التي تلقاها في دار والده ، وعن تجاربه التي علمته وجوب التسليم والإيمان بالأقدار ، فيقول أسامة في موقف من مواقفه : " فتبارك الله مقدر الأقدار ، وموقت الآجال والأعمار " (1) .

فالتفتن والمصاعب التي مرت بها شخصية أسامة ، جعلت منه رجلا فارسا ، مقداما ، يعتمد عليه قاداته ، وأهلوه ، ويحمل هموم أمته وقضاياها ، فهذا هو ذا يطلب إليه صلاح الدين الغسياني⁽²⁾ أن يتجهز للقتال ، فإذا بأسامة جاهز ، وقد أخذ للأمر أهيبته ، فقد نام في جهازه ينتظر الأمر بالنفير ، فلما دعي إليه ، ما كان لديه ما يعوقه " (3) .

وتصور السيرة بعدا آخر في شخصية أسامة ، وهو تعلقه بالصيد ، ومهارته به منذ طفولته ومزاولته له طوال سبعين سنة في شيزر والموصل ومصر ودمشق " (4) .

وقد امتازت شخصية أسامة بالتواضع ، فلا تمنع أسامة إمارته ، وسيادته ، أن يمدح خادمه بقوله : " رجل جيد مقدام " (5) .

ويشير أسامة أيضا في سيرته إلى بعد آخر هو حنكته السياسية ، التي تمتاز بالحكمة والخبرة فقد كان عمه يبعثه لقتال الإفرنج ، وذات يوم قال له أسامة : " يا مولاي ، أأمرك ، بما أتدبر إذا لقيت العدو ، فلم يعطه عمه أوامر ، لثقتة العظيمة بأسامة ، وسياسته في المعارك " (6) .

(1) الاعتبار ، تحقيق ، فيليب حتي : 162

(2) انظر الحاشية صفحة : 115

(3) الاعتبار ، تحقيق ، فيليب حتي : 99

(4) المصدر السابق : 226

(5) المصدر السابق : 142

(6) انظر : المصدر السابق : 147-148

ويكشف لنا جانب آخر من شخصيته وهو دقة الملاحظة وقوة الذاكرة ، فكثيرا ما ساعدته دقة ملاحظته على حسن التصرف في مواقف شديدة الخطورة ، فيقول عمه عنه " صدقت ، ما أراك كنت إلا حاضر القلب ، ما أدهشك القتال " (1).

وتصور سيرته بعدا آخر أيضا هو كرهه العميق للصليبيين ، إذ حين بلغ الثانية من عمره ، كانت الحروب الصليبية اندلعت نيرانها في بلاد الشام ، ففتح عينيه على جحافل الصليبيين ، وهم يشنون هجماتهم على بلاده ، وأمضى سنوات عمره في قتالهم في حماة ، وشيزر ، وأفامية (2).

وكشفت السيرة عن بعد آخر في شخصيته بالإضافة إلى بعد الشجاعة والفروسية ، وهو بعد الأدب والفكر ، حتى يمكن القول إن الفروسية والأدب هما بعدان أساسيان يشكلان شخصية أسامة ، فهو بعد أن قضى في دمشق قرابة عشر سنوات ، أخذ يحس بتقدم العمر والوهن ، فأثر الانقطاع للكتابة والبحث والتأليف .

وهكذا نلاحظ أن سيرة أسامة بن منقذ تصور شخصيته تصويرا دقيقا في مراحلها الحيائية المختلفة ، وأنها الشخصية الأساسية في السيرة ، وأنها شخصية متطورة نامية ، وأن بقية الشخصيات الأخرى تدور في فلكها ، تظهر ثم تختفي .

ونجده قد أعلن عن هذه الشخوص ، وأماكن وجودها ، كما أنه صور ما طرأ عليها من تحول وتغير على مراحل العمر المتعاقبة .

(1) الاعتبار ، تحقيق ، فيليب حتى : 101

(2) المصدر السابق : 47 ، 62

• الزمان والمكان :

تتمن أهمية الزمان في الأعمال السردية من تتاغمها وتلازمها مع عنصر المكان ، بل إن كثير من النقاد يدمجها في مصطلح واحد (الزمكان) ، مع تأكيد العلاقة الجوهرية المتبادلة بين الزمان والمكان (1).

ونلاحظ من خلال سيرة أسامة أن الزمن الذي يسيطر عليها هو الزمن الواقعي المنطقي الطبيعي ، لأن أسامة يتحدث عن زمن حقيقي واقعي ، وعادة ما ينطلق من الماضي ، ولهذا يسيطر على السرد استخدام الفعل الماضي ، فالفعل الماضي عنده يسيطر سيطرة تامة ، وهذا لا يحتاج إلى تمثيل ، لأنه بارز وواضح في كل مراحل سيرته ، وأكثر الأفعال الماضية استخداما في سيرته هو الفعل الماضي " كان " ، والفترة الزمنية التي يتناولها ابن منقذ في سيرته طويلة وممتدة ، ولهذا وجدناه يختزل الأحداث ، ويسرع السرد ، فهو يميل إلى الإيجاز المحكم والعبارات القصيرة ، ولا يسهب في وصف الأحداث ، ويحذف ما لا أهمية له مع إبراز شخصيته ، أو التأثير فيها ، وهذا الإسقاط والحذف يعد " تقنية زمنية تقتضي بإسقاط فترة طويلة أو قصيرة من القصة ، وعدم التطرق لما جرى فيها من أحداث ووقائع غير مهمة " (2).

وعلى الرغم من أن أسامة في سرده لأحداث حياته لا يعتمد التسلسل الزمني ، وإنما اعتمد على طريقة التذكّر والاسترجاع ، استطاع أن يوقفنا على سيرة حياته منذ الطفولة حتى قبيل وفاته بزمن يسير (3) .

(1) أشكال الزمان والمكان في الرواية : 5

(2) بنية الشكل الروائي : 156

(3) الترجمة الذاتية في الأدب العربي : 42

ثم إن المؤاخذة التي أخذت على سيرته كونها لم تعتمد الترتيب التصاعدي في سردها للأحداث لا يمكن عدّها عيباً يقلل من قيمة السيرة ، لأن النص السيرى لا يختلف عن أي نص حكائي آخر ، ويرفض اتباع التسلسل الزمني التاريخي ، لأنه لا يوحى بالعنصر الإنساني في السيرة ، كما أنه من شأنه أن يبعد بين الحوادث والأفكار ويبعثرها بين السنين (1).

والسبب الرئيس لذلك يعود لأن أسامة كتب سيرته في التسعين من عمره ، وقد ذكر فيها حوادث من طفولته ، وأخرى من جميع مراحل حياته ، لذلك كانت أحداثه التي يكتبها ترد عن طريق استرجاع الذكريات التي تزدهم في سمائها الصور التي تخدم هدف الكاتب ، وهو استخراج العبرة والعظة من الأحداث .

ولا يعني هذا أن أسامة لم يكن حريصاً على توثيق التواريخ والأيام ، بل كان حريصاً أشد الحرص ، فقد كان يذكر تاريخ الحدث كاملاً باليوم والشهر والسنة ، وأحياناً بالتوقيت الدقيق يقول أسامة : " قاتلونا من يوم الجمعة ضحى النهار ، إلى يوم الخميس العشرين من ربيع الأول ، فكانوا يقاتلونا النهار كله " (2) .

أو قوله " وذلك يوم الخميس السادس من محرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة " (3) . ونجد أن ما يميز سيرة أسامة ، أنه لا يذكر إلا تواريخ الأحداث التي يعتقد أنها ذات أهمية ، ومما يدل على ذلك أن رواياته التي تتعلق بمغامرات الصيد والقنص التي مارسها هو ووالده طيلة حياته ، تخلو من ذكر السنين التي حدثت فيها تلك الحوادث ، ويقتصر على ذكره لروايات الصيد بقوله : " كنا يوماً ، أو حضرته يوماً ، أو خرجنا يوماً " (4) .

(1) فن السيرة الأدبية : 167

(2) الاعتبار ، تحقيق ، فيليب حتى : 25 - 26

(3) المصدر السابق : 18

(4) المصدر السابق : 104 ، 197

وقد اعترف أسامة بأنه نسي الكثير من الحوادث التي مرّ بها ، لأن الأمد قد طال ،يقول في ذلك : " وما النسيان بمستتكر لمن طال عليه ممر الأعوام ، وهو وراثه بني آدم من أبيهم عليه الصلاة والسلام " (1) .

ونجد أن أسامة قد نظم عقد سيرته من الموضوعات المختلفة، وألف بين حوادثها ، وفقا للموضوع الذي يتحدث عنه على الرغم من وقوعه في الاستطراد ،أو مخالفته للترتيب الزمني الدقيق ، فهو مثلا يذكر حوادث الفتن التي جرت بمصر ،ويرتب أحداثها ، ويقتصر عليها ، إلا ما كان من حوادث طريفة ، و أخبار غريبة مما حدث معه في تلك الحقبة ، ثم يورد جزءا من الأخبار العجيبة مما حدث له ، أو سمعه ، يقول أسامة : " وسأورد من عجائبه ما شاهدته ، ومارسته ، في الحروب ما يحضرنى ذكره " (2) .

وبناء على ما ذكر يمضي في سرد الأحداث محققا ما أراد ، إلا أنه يدخل فيها كثيرا من القصص التي تستدعيها الذاكرة ، ثم يعود إلى موضوعه الأساس، فيقول مثلا : "أعود إلى ما تقدم .. " (3) .

ونرى أنه قد اعتذر في مواطن شتى عن الاستطراد والإسهاب اللذين أخلا بالترتيب الزمني ، ولقد كان في جملة اعتذاراته يكشف عن خشيته من الوقوع في ملل القارئ، حيث قال مثلا : " الإطالة تجلب الملالة ، والحوادث والطوارئ أكثر من أن تحصر ... " (4) .

وفي الحديث عن والده في أثناء الكتاب اعتذر عن ذكر أخباره بقوله : " وما يقتضي الكتاب ذكر هذا وإنما ذكرته لأستدعي له الرحمة ممّن وقف عليه " (5) .

(1) الاعتبار ، تحقيق ، فيليب حتي : 169

(2) المصدر السابق : 58

(3) المصدر السابق : 76

(4) المصدر السابق : 199

(5) المصدر السابق : 76

ونرى أن أسامة يذكر قصة من خلال ذكره لقصة أخرى يرويها ، فيذكر أسامة بسالة أحد الجنود المسلمين حيث أصيبت عينه بشوكة ، ففقدتها ، فذكر معها قصة إبان فقئت عينه وشفى ، واعتذر قائلاً : " لم يكن موضع ذكر البزاة " (1).

ربما هذا التذكر عائداً إلى يحاول توحيد موضوعاته وفق الأفكار ، وليس بناء على الترتيب الزمني .

أمّا البعد المكاني لسيرة أسامة ، فهو واضح جلي ، فقد تنقل ابن منقذ في ربوع بلاد الشام ومصر ، والعراق ، وديار بكر ، فكان يذكر المكان الذي حدثت فيه القصة ، وقد يقوم بذكر نبذة مختصرة عن هذا المكان ، فمثلاً يقول في وصف دار صديق له بنابلس : " ومما شاهدت من ذلك أنني إذا جئت إلى نابلس أنزل في دار رجل ، داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق " (2) .

ويقول أيضاً مدللاً على المكان في سيرته : " فنزلنا ليلة في تيه بني إسرائيل " (3).

فذكر أسامة للمكان زاد من ألق سيرته ، من خلال تحقيق التصوير الفني الجميل للمكان .

(1) الاعتبار ، تحقيق ، فيليب حتي : 61

(2) المصدر السابق : 136

(3) المصدر السابق : 14

• النزعة القصصية :

من المعلوم أن السير بشكل عام تركز في أساسها على التشويق والإمتاع ، سواء بالحكايات الخيالية ، أو بالأقاصيص البطولية ، لذلك تردد ذكرها على كل لسان ، وانتشر خبرها في كل مكان .

ولعنايته الفائقة بالأسلوب القصصي الشائق ، جاءت الأحداث مطبوعة بطابع مميز ، فهي نابضة بالحياة ، تجسم الأشخاص تارة ، وتتطعمهم أخرى ، إلا أنه من أجل المحافظة على إمتاع القارئ واهتمامه طرحها في أشكال مختلفة ، ومراحل متعددة .

لقد صاغ أسامة أحداث حياته بأسلوب قصصي شائق ، وسرد الأحداث في صورة قصة قصيرة تكاملت لها عناصر الفن القصصي ، حتى ليصح أن تكون سيرته نموذجا فريدا لفن القصة في هذا الوقت المبكر من تاريخ أدبنا العربي (1).

ويبين الدكتور يحيى عبد الدايم النزعة القصصية عنده قائلا : " وقد صور لنا أسامة الجوانب الحياتية المختلفة من حياته ، تصويرا حافلا بعناصر الفن ، على ما نرى ، مما يحدث في النفس متعة بالغة الأثر . ويكون التصوير القصصي من أكثر الأشكال شيوعا في سيرته " (2). فنجد في سيرة أسامة أنه اعتمد فيها على دقة الوصف ، والتعرض إلى جزئيات صغيرة من الأحداث ، لتدل دلالة قوية على التصوير القصصي الدقيق الذي لا يدع حركة ولا فعلا ، إلا ونقل له صورة حقيقية .

(1) أسامة بن منقذ حياته وأثاره : 77

(2) الترجمة الذاتية : 41

ويعتمد في بعض جوانب سيرته على التحليل القصصي ، تفصيلا وتقسيما ، كحديثه عن الخلق وأطوارهم وطبائعهم وأشكالهم (1). وحديثه عن الأسد وشجاعته وهدره (2).

ونلاحظ أنه يعتمد في سيرته على الجانب القصصي المليء بالطرافة والترفيه ، خشية أن يقع القارئ في الضيق والملل ، فيورد أخبارا طريفة ، وقصصا مرحة ، ومصادفات غريبة ، تحقق له المتعة ، وتزيده اهتماما وحرصا على متابعة الأحداث والوقائع .

فلقد أتقن الفن القصصي ، وأبدع في إيراد نكته كل الإبداع (3) فقد يأتي بقصة منذ زمن بعيد ، فنراه يمثل أحداثها ، ويتفاعل معها كما لو حدثت معه ، على نحو ما يحكيه من قصة الرجل الذي وجد عقدا من اللؤلؤ ، وهو يطوف بالكعبة ، ثم عرف صاحبه ودفعه إليه ... ثم سافر الرجل إلى المغرب حيث يسكن صاحب العقد ، فوجده وهو لا يعلم أنه هو الذي أضع العقد في الكعبة ، فعمل عنده ، وقرر تزويجه ابنته ، ووصف له ابنته بأنها بشعة فوافق الرجل ، ولما دخل عليها ، وجدها على غير ما وصفت له ... ووجد العقد الذي وجده في الكعبة في رقبة زوجته ، فعرف أن أباه هو الذي أضع العقد في الكعبة " (4) .

(1) الاعتبار ، تحقيق ، فيليب حتي : 104

(2) المصدر السابق : 127

(3) الاعتبار : ت. فيليب حتي : 20

(4) المصدر السابق : 179

النتائج و التوصيات

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على فن السيرة في العصر الأيوبي (كتاب الاعتبار أنموذجاً) ، ومعرفة أسباب تطوّر هذا الفن ، وتوضيح الخصائص الفنية المميّزة للسيرة في هذا العصر ، والتعرف على الإضافة الفنيّة التي أضافها هذا الفن إلى الأدب العربي ، وانتهت الدراسة إلى ما يلي :

- أن الدولة الأيوبية قامت على أرض مصر والشام والجزيرة، وكان للبطل الغيور المجاهد صلاح الدين يوسف بن أيوب (ت589)، فضل وحدثها، وجمع كلمتها.
- أن النهضة الأدبيّة والعلميّة المباركة ونشاطها في عهد الأيوبيين، تولّدت من بثّم وسائل المعرفة، واحتضانهم للأدباء والعلماء.
- أن الحركة الدينيّة والأدبيّة و الفكريّة ازدادت نشاطا وازدهارا في عصر الأيوبيين، من خلال اعتنائهم بالقلم والقضايا الفكرية والشؤون العلمية والتأليف والترجمة التي بدأها الأسلاف الغيارى .
- وجود بذور وجذور للسيرة الذاتية والغيرية في الأدب العربي القديم، وذلك من خلال نشأته وتطوره في الأدب العربي في العصر الأيوبي .
- وجود نماذج من السيرة الذاتية والغيرية في الأدب العربي القديم ، تمتعت بسمات وشكل فني ناضج، يقترب من السمات الفنية للسيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث.
- إن أسامة بن منقذ كان عالما جليلا، وشاعرا مفوّهًا، وراويًا ثقة، اتسم بالموضوعيّة و الحياد، وقوة الملاحظة، و لم يكن يسلم بالكثير من الوقائع و الأحداث التي رواها إلا بعد التوثق منها ، و التأكد من صحتها، بمعنى أنه راعى الشروط الواجب توافرها في الراوي الذي ينقل الأحداث.

- إن كتاب الاعتبار من أعظم الكتب التي أجادت في إلقاء الضوء على الحياة العامة في الشام ومصر في العصر الأيوبي وفي تصوير الحياة الاجتماعية فيهما، ثم إنه كشف عن جوانب ساطعة للتطور الفكري والثقافي لدى المسلمين.
- إن كتاب الاعتبار سيرة طريفة لفارس عظيم، وأديب كبير، غير معتدّ بنفسه في مكان لا يستنكر فيه الاعتداد بالنفس.
- إن سيرة أسامة بن منقذ الموسومة بـ (الاعتبار) قد حققت شروط السيرة الذاتية إلى حدّ كبير ، وهي أنضح ما وصلنا من الأدب العربي القديم حتى وفاته .

وتوصي الدراسة بما يلي :

- أن تخصص البحوث لدراسة فن السيرة في الأدب العربي القديم بشكل عام ،لما فيه من قيمة أدبية ومنتعة فنية ، تثري الأدب العربي، وتزيد في نمّوه وازدهاره .
- التعرف على تطور فن السيرة في الأدب العربي ، ومعرفة بعض الخصائص والمميزات الفنية التي امتازت بها كتب السيرة الذاتية والغيرية ، وبخاصة فن السيرة في العصر الأيوبي ، نظرا لازدهارها في هذا العصر .

فهرس المصادر والمراجع

1. إبراهيم عبد الدايم ، يحيى ، (1975) . الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث
القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية .
2. ابن الأثير ، محمد بن محمد بن عبد الكريم (1995) . الكامل في التاريخ
تحقيق : أبو الفداء عبدالله القاضي ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
3. أدل ، ليون ، (1988) . فن السيرة الأدبية، تحقيق: صدقي حطاب، بيروت دار العودة.
4. الأشر ، عبد الكريم ،(1980) . من كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ الكيناني
دمشق ، منشورات وزارة الثقافة .
5. الأشر ، عبد الكريم ، (1965). فنون النثر المهجري ، بيروت ، دار الفكر الحديث .
6. الأصفهاني ، العماد ، (1959) . خريدة القصر وجريدة العصر ، (قسم شعراء الشام)
تحقيق : شكري فيصل ، دمشق ، المطبعة الهاشمية .
7. الأصفهاني ، أبو فرج ، (د . ت) ، الأغاني ، بيروت ، دار صعب .
8. الأصفهاني ، العماد ، (1987) . البرق الشامي ، تحقيق : فالح صالح حسن ، عمان
مؤسسة عبد الحميد شومان .
9. ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين ، (1981) . عيون الأنباء في طبقات الأطباء
بيروت، دار الثقافة.
10. باختين ، ميخائيل (1990) . أشكال الزمان والمكان في الرواية ، ترجمة : يوسف
دمشق ، منشورات وزارة الثقافة .
11. بحرأوي ، حسن ، (2009) . بنية الشكل الروائي ، دمشق ، المركز الثقافي العربي .

12. بدر ، عبد المحسن طه ، (1963) .تطور الرواية العربية الحديثة في مصر
القاهرة دار المعارف .
13. بدوي ، عبد الرحمن ، (د.ت) . الموت و العبقريّة ، بيروت ، دار القلم .
14. البنداري ، الفتح بن علي بن محمد ، (1980) . تاريخ دولة آل سلجوق
تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة .
15. البوطي ، محمد سعيد رمضان ، (1980) ، فقه السيرة ، دمشق ، دار الفكر .
16. ابن تغري بردى ، أبو المحاسن جمال الدين الأتابكي ، (1992) . النجوم الزاهرة في
ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق : محمد حسين شمس الدين ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
17. ابن الجوزي ، (1951) . مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، تحقيق : حيدر آباد
الهند ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية .
18. ابن الجوزي ، عبد الرحمن ، (1379) . لفتة الكبد إلى نصيحة الولد ، مصر ، المطبعة السلفية .
19. الحديدي ، عبد اللطيف ، (1996) . فن السيرة بين الذاتية والغيرية في ضوء النقد
الحديث ، القاهرة ، دار السعادة للطباعة .
20. حسين ، محمد كامل ، (1947) . الحركة الفكرية في مصر في العصر الأيوبي
والمملوكي الأول بمصر والشام ، دمشق ، دار الفكر العربي .
21. حسين ، محمد كامل ، (1957) . دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين
مصر ، دار الكتاب العربي .
22. الحموي ، ياقوت ، (1936) . معجم الأديباء ، تحقيق : أحمد رفاعي
القاهرة ، دار المأمون .

23. الحموي ، ياقوت ، (1979) . معجم البلدان ، تحقيق : أحمد رفاعي ، بيروت دار إحياء التراث العربي .
24. الحنفي ، محمد بن أحمد بن أياس ، (1982) . بدائع الزهور في وقائع الدهور تحقيق : محمد مصطفى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
25. ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ، (1978) . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر .
26. خليفة ، حاجي ، (1967) . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون طهران،المطبعة الإسلامية .
27. الدميري ،كمال الدين ، (1965) . حياة الحيوان ، بيروت ، دار صادر .
28. دوزي ، رينهـارت ،(1982). تكملة المعاجم العربية ، ترجمة : محمد سليم النعمي ، بغداد ، دار الرشيد .
29. الذهبي ، (1984) . سير أعلام النبلاء ، تحقيق : بشار عواد ومحبي هلال بيروت ، مؤسسة الرسالة .
30. الذهبي ، الحافظ ،(1963) . العبر في أخبار من غير ، تحقيق : صلاح الدين المنجد الكويت ، مطبعة حكومة الكويت .
31. الربضي ، سعيد ، (1988) . مظاهر تطور النثر في العصور المتتابعة دمشق، مطبعة المشرق للنشر .
32. رشيد، ناظم ،(2004). دراسات في الأدب العربي في ظل الدولة الأيوبية ، عمان دار المناهج للنشر والتوزيع .

33. رنسيما ، ستيفن ، (1968). **تاريخ الحروب الصليبية** ، ترجمة : الباز العريني ، بيروت دار الثقافة .
34. الزركلي ،خير الدين ،(1990). **الأعلام** ، بيروت ، لبنان ، دار العلم للملايين .
35. زغلول سلام ، محمد ، (1967) . **الأدب في العصر الأيوبي** ، القاهرة ، دار المعارف .
36. زيدان ،إبراهيم ، (2004) . **أشكال السيرة العربية وتأثيرها في الغرب** عمان ، المؤسسة الصحفية الأردنية .
37. ابن سناء الملك ، (1996) . **ديوان ابن سناء الملك** ، تحقيق : محمد إبراهيم نصر القاهرة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .
38. السيوطي ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن ، (1968) . **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة** ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية .
39. السيوطي ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، (1964). **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي .
40. شادي ، محمد ، (2003) . **البناء السردى للأحداث في العهد الأيوبي والمملوكي** البحرين ، مجلة البحرين الثقافية ، ديسمبر ، العدد 12 .
41. أبو شامة ، عبد الرحمن بن إسماعيل ، (د.ت) . **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية** ، تحقيق : محمد حلمي ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
42. ابن شداد ، بهاء الدين يوسف ، (2002) . **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** المسماة **سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي** ، تحقيق : أحمد أبيش ، سوريا ، دار الأوائل للنشر .
43. شرف ، عبد العزيز ، (1983) . **أدب السيرة الذاتية** ، مصر ، الشركة المصرية العالمية.

44. شلبي ، أحمد ، (1978) . التربية الإسلامية نظمها - فلسفتها وتاريخها
القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية .
45. الشيرازي ، المؤيد هبة الله بن داود ، (1949) . سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة
تحقيق : حسن كامل حسين ، القاهرة ، دار الكتاب المصري .
46. شير ، إدي ، (1980) ، معجم الألفاظ الفارسية المعربة ، بيروت ، مكتبة لبنان .
47. الصاحب ، كمال الدين عمر بن أحمد ، (1997) . زبدة الحلب من تاريخ حلب
تحقيق: سهيل زكار ، دمشق دار الكتاب العربي .
48. صبيح ، محمد ، (1970) . القدس ومعاركنا الكبرى ، مصر ، مطبعة دار الكتب المصرية .
- الصفدي ، (1911) . نكت الهميان في نكت العميان ، مصر ، المطبعة الجمالية .
49. ضيف ، شوقي ، (1987) . الترجمة الشخصية ، القاهرة ، دار المعارف .
50. عاشور ، سعيد ، (1975) . الحركة الصليبية ، القاهرة ، مطبعة الأنجلو المصرية .
51. عباس ، إحسان ، (1966) . فن السيرة ، بيروت ، دار صادر .
52. عباس ، حسن ، (1981) . أسامة بن منقذ، حياته وآثاره، الإسكندرية ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب .
53. عبد الغني حسن ، محمد ، (1980) . التراجم والسير ، القاهرة ، دار المعارف .
54. عبد النور ، جبور ، (1979) . المعجم الأدبي ، بيروت ، دار العلم للملايين .
55. ابن العديم ، كمال الدين بن القاسم ، (1988) . بغية الطلب في تاريخ حلب
تحقيق : سهيل زكار ، دمشق ، دار المعالي للنشر .
56. العطار ، مها ، (1995) . السيرة الفنية في الأدب العربي حتى أوائل الثمانينات
دمشق ، مطبعة الداودي .

57. عليان ، مصطفى ، (1987) . صورة البطل المسلم والتصور الإسلامي، مجلة دراسات الجامعة الأردنية ، عمان ، المجلد الحادي عشر ، العدد الرابع .
58. العمدة، هاني، (1981). دراسات في كتب التراجم والسير، عمان، المؤسسة الصحفية الأردنية .
59. فهمي ، ماهر حسن ، (1970) . السيرة تاريخ وفن ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية.
60. الفيروز آبادي ، مجد الدين ، (1987) . القاموس المحيط ، بيروت ، مؤسسة الرسالة .
61. ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة بن أسد ، (1983) . تاريخ دمشق ، تحقيق : سهيل زكار، دمشق ، دار حسان .
62. ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة بن أسد ، (1974) . تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ، تحقيق : عزت العطار الحسيني ، القاهرة .
63. الكتبي ، ابن شاکر ، (1974) . فوات الوفيات ، تحقيق : إحسان عباس بيروت ، دار صادر .
64. ابن كثير ، عماد الدين ابن الغدا إسماعيل ، (1987). البداية والنهاية ، تحقيق : أحمد ملحم وآخرون بيروت ، دار الكتب العالمية .
65. كراع ، أبو الحسن علي بن الحسن الهنائي ، (1976). المنجد في اللغة ، تحقيق : أحمد مختار وضاحي عبد الباقي ، (د.م) ، عالم الكتب .
66. كشاجم ، محمد بن الحسن ، (1954) . المصايد والمطارد ، تحقيق : محمد أسعد أطلس بغداد ، دار اليقظة .
67. لوجون ، فيليب ، (1994). السيرة الذاتية ، الميثاق والتاريخ ، ترجمة : عمر حلي بيروت ، دار النهضة العربية .

68. مالكوم كاولي وآخرون ، (1986) . كبار الكتاب كيف يكتبون ، ترجمة : كاظم سعد الدين بغداد ، وزارة الثقافة والإعلام .
69. المعاملي ، شوقي ، (د.ت) . السيرة الذاتية في التراث ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية.
70. معلوف ، لويس ، (د.ت) . المنجد في اللغة والآداب والعلوم ، بيروت، المطبعة الكاثوليكية .
71. المقدسي ، أنيس ، (1980) . الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة بيروت ، دار العلم للملايين .
72. المقرئزي ، تقي الدين أبو العباس ، (د.ت) . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروفة بـ (الخطط المقرئزية) ، لبنان ، طبعة مطبعة الساحل الجنوبي .
73. المقرئزي ، تقي الدين أبو العباس ، (1993) . اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء تحقيق : محمد حلمي أحمد ، القاهرة ، مطابع الأهرام التجارية .
74. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل، (د.ت). معجم لسان العرب، بيروت، دار صادر.
75. ابن منقذ ، أسامة ، (1953). ديوان أسامة بن منقذ ، تحقيق : أحمد أحمد بدوي وحامد عبد الحميد ، القاهرة المطبعة الأميرية .
76. ابن منقذ ، أسامة ، (1935) . لباب الألباب ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، القاهرة المطبعة الرحمانية .
77. ابن منقذ ، أسامة بن مرشد ، (1999). كتاب الاعتبار ، تحقيق : فيليب حتي ، مكة المكرمة مكتبة عباس بن احمد الباز .
78. ابن منقذ ، أسامة ، (2009) ، كتاب الاعتبار ، تحقيق : قاسم السامرائي، عمان، وزارة الثقافة .

79. ابن منقذ ، أسامة ، (1994)، كتاب الاعتبار ، تحقيق : عبد الكريم الأشتر، عمان ، وزارة الثقافة.

80. النجار ، حسين فوزي ، (1994) . التاريخ والسير، القاهرة، الدار المصرية .

81. نجيب ، المضيبي ، (1964) . المستشرقون ، القاهرة ، دار المعارف .

82. نيزك، أسعد، (2003). السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم ، مصر ، دار الهلال .

83. ابن واصل ، (1953) . مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق : جمال الدين الشيال القاهرة ، مطبعة جامعة فؤاد الأول .

84. ابن الوردي ، (1970) . تنمة المختصر في أخبار البشر ، تحقيق : أحمد رفعت البدرأوي بيروت ، دار المعرفة .

85. اليمني ، نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن ، (1991) . النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ، تحقيق : هرتويغ درنبرغ القاهرة ، مكتبة مدلولي .